رتْق الشِّراع

* رتق الشّراع
* رواية : فؤاد قنديل
(341)
* تصميم الغلاف : محمد بغدادى
* لوحة الغلاف : محمد نادى أحمد
* رسومات داخلية : غريب ندا
* المراجعة اللغوية : عادل سميح
* الطبعة الأولى : أكتوبر ٢٠٠٣
* رقم الإيداع : ١٣٧٣٩
الترقيم الدولى :
I.S.B.N: 977 - 305 - 533 - 7
* المراسلات باسم مدير التحرير
على العنوان التالى
١٦ أ ش أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى : ١١٥٦١
الشركة الدولية للطباعة والنشر
ت : ٨٣٣٨٢٤٠

رتْق الشِّراع

فؤاد قنديل



رواية

341

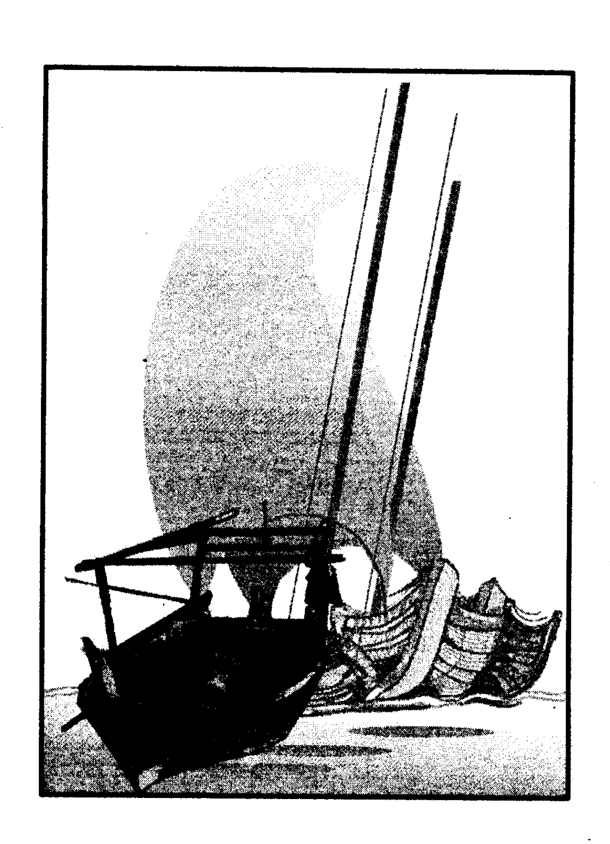
أصوات أدبية



فؤاد قنديل



القسم الأول



(١)

تجرى الأيام فوق الموج السكندرى الصاخب . .

تتلون المياه وتتلون الحياة . . السماء مشفقة ومطبقة وحنون . الأفق يقترب جدًا ونحن جالسان على الأحجار الكبيرة . الأفق يبتعد ويرنو إلينا بينما الأحجار تحرس الشاطئ من جنون المد ، ونحن فوقها نرنو للطيور التى تحلّق بعيدًا . تتعانق وتندفع نحو المياه ، ثم تنفض أجنحتها ذرات الماء وتعاود التحليق . . حرة هانئة دون أن تنسى التسبيح لرب الجمال والحرية .

الصيادون أمامنا . . يجلسون على صخور ترابية هنا وهناك بين الشاطئ الحجرى وبين المياه المتراقصة .

المياه تلمس الصخور وتبتسم وتقهقه ، ثم تعبس وتحدق فى الصيادين وفينا . . تلمع صفحتها ونكتشف بعد لحظات أنها تعاكس السماء . .

الشمس فوق رءوسنا ، تجتهد أن تكوى الرءوس والأبدان ، لكن البحر والنسائم النقية الوديعة لا تسمح لحرارة الشمس أن تفعل بنا ما تشاء . . . . البحر بلا نهاية . . والجميلة إلى جوارى . رأسها على كتفى . . تنام وتصحو . . نتحدث ونصمت . . نتنهد . . نتذكر ونبتسم ونضحك . . يتحول وجهها إلىّ . . تمتلئ العيون بمرأى الآخر . . تشرب من وجهه ، ومن بحار عيونه الحنان والحب . . الشعور بالأمان يبدو ممددًا فى قلبها وعينيها . . والشعور بالرضا فى عينى وقلبى . . تنهيدة عميقة تحسن التعبير عن أبدان تغمرها السعادة .

قلوب تنهل من الحب بعد رحلة طويلة وشاقة . منظومة من الجمال تمتد أمامنا إلى ما لا نهاية ، وتعكس نفسها على مرايا الأرواح العاشقة . .

يسراها فى يمناى . . قالت : أحب أن تكون إلى جوار قلبى . . ما الذى يمكن أن يبتغيه الإنسان من الدنيا غير أن يجد صنو قلبه ورفيق عمره .

- رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير .

استضافتنا الأحجار ساعات طويلة فى حضرة الشمس وحضن السماء الشاسع ، تحكى لنا عن صفائها الذى تعيش هذه الأيام أزهى عصوره بعد غمام متراكب وعنيد وثقيل . . الأفق يبتعد ثم يقترب . . الأمواج تعلو وتهب فى سيمفونية لا تتوقف منذ جئنا إلى هنا فى ليل أو نهار . . وأنا بين المسجد والبيت ، لا يعرفنا هنا أحد وليس لنا فيها قريب .

من يملك القدرة على أن يبرح هذا المكان ، من يستطيع مهما جرجرته الإغراءات أن يودع هذا الجمال والصفاء والبهاء ؟ . . الإسكندرية التى لم أزرها أبدًا ، ألهمنى الله أن أطلب العمل بها وأُجبت إلى طلبى . . فإذا هى الدنيا والمدينة والفرح والبهجة وإلى جوارى مهجتى ، لا أغيب إلا أوقات الصلاة فى مسجد المرسى . البيت لا يبعد غير مائة متر . الرضا الربانى يشملنا . . مر أسبوعان . . الأيام تمضى بنا فى وداعة بين أحضان هذا العالم الجديد ، ما أبعد الفارق بين الإسكندرية والقرية التى خلفتها دون وداع . فهل شاءت الإرادة الإلهية أن نحيا سنوات فى

معية هذه العروس فواحة الجمال .. متجددة البهاء والألق ؟

تقدم العصر فوقفنا لا نود أن نغادر الجلسة الناعسة .. لوحنا للطيور الفضية التى تواصل بلا انقطاع معانقة الفضاء الفسيح ، والانقضاض على الماء ونقشه بالمناقير لالتقاط أسماك صغيرة ، دون أن تبرح سماءها الصافية ، لا تكاد تلمس ظهورها دغدغات الشمس الواهنة .. تركتها تكمل إلى البيت طريقها ومضيت إلى المسجد فصليت العصر .. عدت . تناولنا طعامًا لذيذا .. لذيذًا جدًّا ودسما . أسرعنا إلى الفراش .. فراشنا الوثير الذى يضمنا معا ، ولا ثالث لنا .. الغرفة خالية إلا منه وكنبة ، ومنضدة .. على الجدار سورة من القرآن : «ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك . فإن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب» ، على الجانب الآخر صورة الكعبة والحرم المكى يحتشد به عشرات الآلاف من المؤمنين ..

وعين الله تنظر إليهم بعطف . المنضدة بالركن محملة بأكداس من الكتب التى تنقلت معى إلى أن حطت معى الرحال ، وسأصنع لها مكتبة تليق بكتب القديسين والأبرار .

حلم أم يقظة ما أراه .. الماضى المتلبس بالحاضر .. أنا والآخرون .. أمى التى أوشكت أن تفقد البصر ، تتحسس طريقها بيدها اليمنى خارجة من دارنا فى القرية نازلة إلى البحر .. عرفات يدور حول نفسه بينما الحريق يندلع حوله ، يطول ملابسه، فيجرى حافيا ، النار فى أثره لا تخطئه ولا تكف عن الركض خلفه .. أخى طه المزروع فى الأرض نزل من فوق حماره ... وسار إلى جواره .. ما الذى جعله يهبط من فوق ظهره .. طه لا يلتفت يمينا أو يسارًا ، يسير منكّس الرأس وخلفه عشرات الأولاد الصغار .. حفاة .. لكنهم يبتسمون ويلهون ويمرحون .. العمدة يجرى وراء سيدة لا أعرفها .. بل أعرفها .. بدت كأنى أعرفها .. ابتلعتها الظلمة ، ظل العمدة يجرى ، يرفع ذيل جلبابه

ويحمل فوق صدره كرشه الكبير ويجرى .. شافية حماتى .. تدور فى الشوارع .. تخبط أبواب ونوافذ البيوت وتسأل عنى ..

أسمعها تقول : ألم ير أحد منكم الشيخ هلال رمضان .

ينفى الجميع أنهم رأوه .

بلدوزر كبير يزلزل الأرض ، اندفع بقوة ، جرّف جانبا منها .. زأر .. ثم مال قليلاً فهدم بعض البيوت .. ما الذى يجرى فى قريتنا منذ تركتها ؟

أهل القرية يصلون خلفى ، ثم يخرجون من الصلاة ومن المسجد ويصرخون فى سائق البلدوزر .. لا يأبه بهم .. الشمس تشرق من الغرب .. غير معقول .. أين أقف .. ربما كان وجهى نحو الجنوب . جاموسة طه أنجبت ثلاثة عجول .. يهلل ويرقص ومعه زوجته تزغرد .. أولادهم الحفاة يكبرون فى الوقت نفسه بسرعة .. الترعة تتسع وتغير من مسارها وتفتح لها طريقا تحت بيتنا وبيت بدوى وبيومى الشربينى .. ملايين النحل تهاجم كل شىء

.. القرية كلها تكاد تختفى تحت قرصات النحل وطنينه .. الناس يصرخون .. الطنين يعلو ويعلو .. الأشجار تعلو والمزروعات تعلو .. تصبح سورًا عاليا حول القرية .. أخرج بسرعة من القرية .. أقفز مرة ومرة حتى أعلو فوق السور الأخضر العالى .. أطل على القرية وأنا معلق بالسماء .. أحاول البحث عن انشراح إلى أن أجدها فى ركن مظلم من شارع الحب . أندفع نحوها فأختطفها كطائر البحر وأسرع بمغادرة القرية .. يتبعنى بدوى وبيومى الشربينى يلوحان لى وهما على الأرض ونحن فى السماء .. نبتعد ونبتعد . بعض البيوت تتحول إلى كومات من الضباب ، ترتفع ثم تصبح سحبا ملبدة . يظهر العمدة ويلقى عليها شعلة نار ..

سرعان ما تنطفئ .. أفيق فجأة فأجد نفسى فى الفراش وإلى جانبى زوجتى فى قميصها الوردى .

- خيرا اللهم اجعله خيرا .

أيكون حلما أم حقيقة ؟ .. نوما أم يقظة ! ما هذا ؟ .. طرق عنيف على الباب .. أسرعت أفتح

.. من .. مستحيل .. الست شافية والدة انشراح .. تفضلى .. كيف عرفت مكاننا ؟ .. لا أحد فى الدنيا يعرف .. هل هو حلم أم يقظة ؟.. الأشياء تختلط .. الأمس واليوم والغد .. تفضلى .. فتحت النافذة ؛ لأتأكد أننى فى الإسكندرية ، كانت الطيور لاتزال تحلق بحرية وتتعانق ، وقد تزايدت برؤية مهرجان الشمس التى احمرت ومسحت فرشاتها على صفحة السماء ، قبل أن تلملم عباءتها استعدادًا للرحيل .. الغروب يتقدم بثقة نحو العروس الجميلة ، بدت .. غير مبالية ، تعودت أن يأتى فى مثل هذا الوقت .

فى الصباح قالت شافية ونحن جلوس فى الشرفة تربت على وجوهنا والصدور نسائم بحرية طازجة وعذبة :

- بعد أن حكيت لك ما جرى فى غيابك ، أليس من الأفضل أن تعود ؟ البلد بحاجة إليك .

قلت : وأنا بحاجة إليها .. سأعود .. حتما سأعود .

رفعت عينى إلى انشراح .. قرأت فيهما الموافقة .. تنهدت بعمق ، وبدا واضحًا اتساع الأفق وبهاء النهار .





(٢)

عندما رأيتك أول مرة والشمس تلملم خيوطها صوب الغروب ، كان الطريق صاخبًا . . يخوض فيه خلق كثير . . الفلاحون عائدون من حقولهم بالبهائم والعيال والكلاب والحمير ، بدت على ملامحهم آثار نهار كامل من العمل والحركة ، تناوشهم حرارة الشمس وصفعات الهواء ومعانقة الطين والماء .

الصبايا يحملن جرارهن ، عائدات إلى بيوتهن بعد أن ملأنها بالماء من الطلمبة المجاورة للنهر ، بالقرب من الجسر الحديدى الذى يعبر النهر إلى عزبة أبو فوده .

أنا فى مصلاى وقد انتهيت من ركعتين لله قبل أن أنوى للمغرب . . لست أدرى لماذا رفعت رأسى فى لحظة مرور الصبايا ، فإذا أنتِ أطولهن ، ووجهك شاهق البياض يطل من فوق ردائك الأسود كقمر يشرف على قرية مظلمة ، وعندما رفعت ذراعك

اليسرى إلى سطل الماء فوق رأسك تهدل الكم ، وبدت ذراعك البضة مشرقة بقوة وقافزة فوق غرائزى ، ولما استشعرت العيب فى اللحظة المناسبة أنزلتها ، وعدت تسندين السطل بالذراع الأخرى فانتقلت نفحة الجمال إلى سكان الجانب الآخر من الطريق .

كنت تسيرين فى خفة ونبل ، ولما تكشفت لى حالى ، إذ أسرفت فى النظر إليك مبهورا بطلعتك التى أثق أنى أراها للمرة الأولى تداخلت ، وغلبنى الأسف على روحى النزقة ، وعينى الطائشة التى مضت تحدق وقد أنساها الشيطان أن تتذكر محاولاته الدءوب لزيادة عدد المتجهين إلى مهاوى الذنوب .

رحت أقرّع الشيطان وألوم نفسى الأمّارة بالسوء ، كيف تخلت عنى وقد دربتها طويلا منذ تركت بنها . . المدينة التى تلقيت فيها دراستى الأزهرية .

بينما كنت أشد أذنى ، تكشفت لى روحى فى الوقت ذاته وهى تعيد على مرايا ذاكرتها حلاوة وجهك وشفتيك اللتين صاغهما الله من رحيق أجمل الزهور القانية .

بدت لى سوءاتها وهى تنهل من ملاحة وجهك الذى يبدو كأنه ابتسامة نجت فى آخر لحظة من البكاء ، كانت تحدق فى خدودك المشمشية الناضجة وسنا جبهتك المرمرية كصفحة نهر من عسل .

ما هذا الذى يجرى بداخلى ؟ لوم ولذة .. همٌّ وبهجة .. سخط وانبهار .. ذهول وروعة . أسف وسرور .. ظلام ونور .

تنهدت فامتزج كل زوجين .. سالب وموجب .. تسللت الحيرة تدريجيًا وغادرت روحى التناقضات العاصفة ودغدغت النسمات بدنى المهتاج بالغضب والدهشة ، استغفرت ربى وأفقت من رحلتى على مقدم بعض الفلاحين إلى الزاوية الصغيرة كى يصلوا المغرب .

قام أحدهم فأذن لها ، وقمت إلى الصلاة ، وأنا أدعو المولى كى يحفظنى فى صلاتى ولا يصرفنى عنها ، وانبثق فى أعماقى قول الرحمن المنان يربت على رأسى بحنان : « سنقرؤك فلا تنس » .

شكرت رحمته وكرمه حتى لا أضل فأشقى ..

وهل لى فى دنياى إلا الصلاة والقرب من صاحبها الذى آليت على نفسى ألا أترك ذكره أبدا .. وأن أعتصم بحبله ما حييت ، ففى التعلق بأذيال رضاه سعادة الدنيا والآخرة ، وهل يسعى الإنسان إلا إلى السعادة ، وتبقى المشكلة ، فقط ، ما هى السعادة وما هو الطريق إليها ؟ وفى الإجابة على السؤالين تكمن سعادة وتعاسة البشر .

لقد أدركت عن قناعة - وليس فقط عن دراسة - أن السعادة الحقيقية التى لا تفنى أبدا تتجلى فى أن أمضى حيث تشير أصبع الرب . يا رب . إن واحدة ممن خلقت اقتحمتنى ، وأصابنى الجمال فى مقتل ، وكنت أحسب نفسى محصنا ، لأنى أنا المعتصم برحابك ، المخلص لك .. لقد اجتاحت عالمى البسيط الذى لا يؤنسه غيرك ، أخذت تضرب بعينيها على باب قلبى الرهيف ، وتجلس على قارعة الآمال المغردة ، والنظر إليها يارب - ولا أفهم كيف - يحمل إلىّ نشوة تسرى فى بدنى وتسكرنى ، وقد تلهينى ، وأنا لم أخلق لذلك .

كيف ينظر الناس إلىّ ويرون قلبى وهو يدق ، وجسمى وهو يرتجف تحت لدغات الحب ولمساته ؟ ماذا سيكون عليه حالى وأنا إمام وقدوة ورجل دين ؟ . . الواعظ لهم والمرشد ، حامل كتاب الله الذى يجب أن يكون أهلا للأمانة ، والأهلية تبدأ من طهارة الجوارح وتوجهها إلى الله وحده ، فكيف إذا أصبح قلبى وردة فى كف الريح ؟!

لقد تجلى ذلك واضحا وأنا أمارس هوايتى المفضلة . . النجارة . . كم من مرة انحرف الشاكوش عن رأس المسمار بينما كان طيفها يدور من حولى ويتراقص أمام عينى . .

كنت أوشك على الانتهاء من صنع منضدة خشبية ولم يكن يتبقى لها إلا ضبط الأرجل بوضع المزيد من الغراء فى مواضع التحامها بالقرصة الكبيرة ، كما أن الأمر يتطلب المرور بالمبرد على حافة القرصة وتثبيت بعض القوائم الجانبية .

العمل مع الخشب جذاب ومسل وممتع وله فوائد جمة ، لا أحس معه بالإجهاد . . فضلته على الأرض

التى تركتها لأخى طه . . يحبها أكثر منى وينتج منها الخير الكثير .

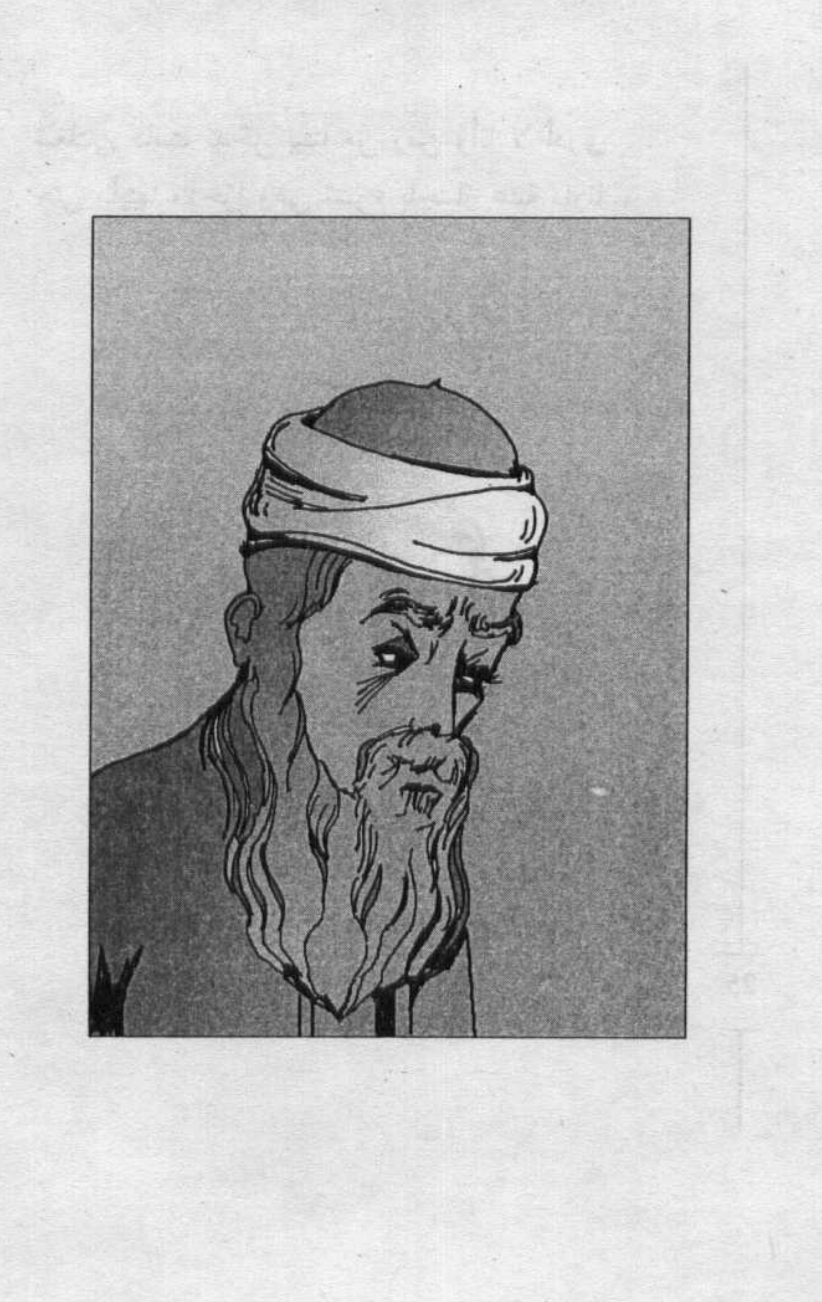
الخشب كائن رائع يتمتع بمزايا عديدة لا تكاد مادة أخرى تماثله فيها ، رقيق ومتين . . ناعم وخشن ، لين وصلب ، نصنع منه كل شىء يلزم الإنسان من الإبرة والطبق حتى العربة وجدران البيوت والأسقف والأثاث ، وأرفف المكتبات والمحلات التجارية والطبية والتماثيل والحلى والآلات الموسيقية فضلا عن الأدوات الزراعية ولوازم الغزل والنسيج اليدوى .

كانت لدينا طبلية نجلس عليها متربعين لتناول الطعام ، لكنى لم أعد أرتاح لهذه الجلسة ، وكذلك أمى ، بدأت تشكو من مفاصلها خاصة الركبتين ، ولو كان الأمر بيدى وأمتلك فدانا - أو يزيد - لزرعته شجرًا فقط خاصة الكافور والسرو .

انشراح تشبه تماما شجرة السرو . . . عرفت اسمها من أمى ، فقد حكت لى عن بنت بدوى الطيبة التى تقضى لها بعض حاجاتها وأنا غائب . . إذًا فالتى

شغلتنى كانت تدخل بيتنا من زمن وأنا لا أدرى . .
حتى رأيتها مؤخرًا وهى تسرع باجتياز عتبة دارنا .





(٣)

عندما خرج الشيخ هلال من دار حسنين فوجئ بالليل الذى خيم على كل شىء وأغرق الشوارع والحارات ، من الأرض إلى السماء .

- كيف انفلت من أيدينا بسرعة كل هذا الوقت، ليس ثمة مخلوق الآن وقد انقضى من الليل نصفه يمكن أن يكون على قيد اليقظة .

الكلاب تتحرك وهى مكسوة بالصمت . تأمل كم الرحمة الذى يحتضن البشر لأن الكلاب الآن تلوذ بالصمت ، وكان يعلم أنها تغادر حالتها هذه قبل بزوغ الفجر فيعلو نباحها ويشتد ، بسبب وبدون سبب ، ويصيبها ما يشبه الهياج .

خالجه شعور بالإشفاق على قريته المسكينة التى ترتمى فى سكون تحت أقدام الليل ، وقد جثمت على صدرها هموم كثيرة وعتمة ثقيلة .

آثر أن يتخذ الطريق المختصر إلى بيته عبر الحقول ،

متحاشيا الخوض فى الطرقات الضيقة الملطخة بالروث والحفر والظلام . . الكل نام وانعقدت الجفون .

تنهد هلال شيخ القرية الشاب :

- لقد أكرمنا الله بالتوفيق بين علوان وزوجته . .

رجل متحجر الرأس ، عنيد رغم هدوئه ، وامرأة أنانية . . ثرثارة وعالية الصوت ، لديها طاقة غريبة على المكابرة . . الأزواج الأكثر هدوءا يصنعون الزوجات الأكثر جلبة . . ومع أن علوان قوى الشخصية فإنه غير قادر على تطويعها وتشكيلها . . رأسمال الزوج التفاهم . . لقمة يابسة مع الانسجام خير من بيت تملأه الذبائح ومعها الخصام . . ربنا يهدى .

نقل خطواته على مهل ، تتناهى إلى سمعه همهمات مبهمة . لكن نقيق الضفادع كان يخدش نعومة الليل وقطيفة الصمت . ذرات هائمة من الندى المتساقط كندف المحبة تتعلق بها أنفاس الضوء الشفيف . . ضوء قادم من مصادر مجهولة ، لعله يطل من قلب الهدوء والأطلال الساكنة ، وأمنيات الملائكة

وأحلام الفقراء . تمايلت عيدان الذرة وأغصان أشجار التوت والصفصاف والجميز . . تسللت إلى أعماق الشيخ همساتها ونجواها . ملأ رئتيه وأبقى الهواء المعطر بالطبيعة فيهما طويلا . . كتم أنفاسه حتى ضاق صدره فأطلق الزفير ، مشى بعوده الممشوق بين شجيرات القطن ، ينقل قدميه برشاقة وروية ، ويتنفس بعمق ، ويعود ليتنفس . . يحس بالرضا يشمله من أعماقه حتى استشعر أنه أصبح كائنا شفيفا وأنه جزء من تشكيلة الجمال الشادى والسحر اللا متناهى ، بينما الكل يتجرع الخدر اللذيذ حتى الثمالة .

- هذه هى النهاية الحقيقية للكون بعد انقشاع الصخب . . سكينة تامة ودعة . . ماذا تبتغون من وراء كل هذا الصراع والتدافع ؟ لن يبقى إلا ما هو أمامى ماثل .

لم يكتشف فى البداية تلك الأصوات التى تبثها حناجر مغلقة . . تبين له أن ثمة حوارا مكتوما بين رجلين ، واشتعل ضوء واضح ممتد الأطراف ، غطى الأصوات المتهامسة .

مساحات الضوء تكبر وتعلو ، تقتحم الليل بقوة وتكاد تمحوه فى الأفق الجنوبى للقرية .

استدار نحو المصدر . . طالعته نار عالية ، اندفع يجرى نحو اللهب . . تفادى الشجيرات القصيرة وواصل الركض ، انطلق خفيفًا يقفز فوق القنوات ، عيناه لا تفارقان النيران المحمومة التى تتعالى وتتقدم لتبتلع فى نهم كل ما تلقاه ، بينما كانت عيدان الذرة تطقطق من الألم تحت وقع نهشات أسنان اللهب .

لمح شخصا يجرى وينادى :

- رزق . . إجر يا رزق . . فيه حد شافنا .

فى قفزتين كان هلال فوق الرجل . . حاول أن يضرب «هلال» ويتخلص منه . . لم تُجْدِ محاولاته للفرار ، بدا أن لهلال قدرة على العراك ، على الأقل يمكن الحكم فى يسر بأن له ذراعين قويتين أمكنهما السيطرة على الرجل المصر على الإفلات ، وقد وجه بعض الضربات إلى هلال فتفاداها برشاقة ، لم يردها ، واكتفى بشل حركته . أطلق الرجل عبارات مضطربة بلا معنى ، عندما التقى الوجهان وميز الرجل

خصمه . . فتح فمه دهشة وانطلق سراح الكلمات فيما يشبه الذهول :

- الشيخ هلال !

- نعم يا مكى . . الشيخ هلال .

- أنا كنت . . .

- لا تشغل بالك بقول أى كلمة ، فأنا رأيت كل شيء .

- يا مولانا . . أنا . . .

قال الشيخ هلال وهو يساعده على الوقوف دون إعطائه فرصة كى يتحرك أدنى حركة .

-لا تحمل همًا . . المسألة واضحة . هيا بنا إلى العمدة .

سار بضع خطوات ، ثم حاول بسرعة خطف ذراعه ، لكنه تأكد من أن القبضة الحديدية التى تعتصر ذراعه لن تسمح له بمجرد التفكير فى الإفلات ، وإنما قد تسمح له فقط بأن يفكر فى مستقبل مظلم من المؤكد أنه ينتظره.

دق هلال أبواب البيوت الثلاثة الأولى حتى

استيقظ رجالها وطلب منهم اللحاق بالنار ، وقطع خطين ذرة من أمامها حتى تتوقف ولا تلحق بالباقى ، وأن يبلغ أحد صاحب الأرض وفى الأغلب سيكون عرفات .

- الله يخرب بيتك .
- من هو ؟

تمهل مكى قليلا ثم قال :

- الله يسامحه .
- يسامحه أم يخرب بيته ؟
- يسامحه .
- مستحيل يسامحه .
- على رأيك . . أعماله كثيرة فكيف يسامحه .
- من هو ؟
- على فكرة يا مولانا . . أنت بركة .
- يا سلام !

عاد لمحاولاته التخلص من أصابع الشيخ هلال لكنه عجز تماما ، وقرر أن يستسلم لنفسه .

- رزق الكلب ، جرى وتركنى . . لو كان هنا ،

كنا قدرنا سوى نخلص من الشيخ زفت .

مكى يتعثر فى الأرض وفى ملابسه ، وفى تفكيره الذى لا يكف عن التفتيش فى كل الحيل البدنية والذهنية حتى ينقذ روحه من المصير الأسود الذى يضاعف من بشاعته أن الذى قبض عليه هو الشيخ هلال ، فضلا عن أنه خفير ، عليه أن يحمى القرية .

أصر هلال على أن يستيقظ العمدة فورًا . رفض الخفراء إيقاظ العمدة فى ساعة كهذه ولو انهدت الدنيا . هكذا كانت أوامره .صرخ فيهم الشيخ هلال ، ونحاهم جانبا وحاول أن يصل إلى الباب الداخلى لبيت العمدة ؛ فمنعوه ، وهم ينظرون إلى مكى ويتساءلون عما جرى .

خرج العمدة من داره وهو يلعن جميع العمد والخفراء فى يوم واحد . . سمعه الجميع ،لكنه أيضا لعن الشيوخ فى سره وطلب من الله أن يخلص العالم من الثلاثة كى يستطيع أن ينعم بالنوم ، ولو تكرم الله عليه أكثر فإنه يطمع فى أن يمسح هذه القرية من فوق الخريطة حتى ينعم العالم بالسلام .

لم يكن العمدة فى الحقيقة نائما حتى عندما أسرع إليه رزق ليبلغه الخبر المشئوم . . كان يقظا تماما فى انتظار الأخبار التى كان على ثقة أنها ستمضى كما خطط لها . . عندئذ ستتحقق له بعض آماله ، ويستقر قليلا قلبه فى موضعه .

طلع عليهم مسعد حجاب . . العمدة الذى يشبه البغل الأسترالى . . العمدة صاحب العين الواحدة . . والصوت الأجش الجهير الذى يلفظ الكلمات كبذور البرتقال فى سرعة وفجاجة ملوثة بريقه النتن .

. . العمدة

. . العمدة عابد الأرض والمال الذى لا تحسبه يغادر الحظائر أبدا . .

العمدة الذى أنجب خمس بنات . . وولدين أكبرهما يكرهه ولا يقر له فى البلدة قرار ، وولد آخر . . من لطف الله أنه على قدر كبير من البلاهة .

العمدة الذى فاجأه مرة هذا الولد بصفعة كبيرة على قفاه العريض بينما كان وسط ضيوفه من الأعيان ، يصول ويجول كعادته فى الحديث ، لا يترك

لأحد فرصة كى يكشف عن بعض ألوان ذيله . ثم خرج الولد عدْوًا من الدوار وهو يضحك عاليا بانتصار .

العمدة الذى طلع إلى هلال يدّعى التثاؤب والانزعاج ويتساءل عن سر إيقاظه فى هذه الساعة ، مذكرًا الخفراء الحمير - على حد قوله - بأنهم يعلمون كم قضى يوما ثقيلا مرهقا فى خدمة أهالى هذه البلدة التى لا ترحمه ولا تجعله يهنأ بلحظة راحة .

طلب هلال من العمدة إبلاغ المركز ، حاول العمدة تهدئته بلا جدوى ، ضرب مكى كفين ليرضى الشيخ ، لكن الشيخ لم يحد عن طلبه . لم يتصور أن العمدة يضرب مكى عقابا له على الحريق والاعتداء على حقوق الغير ، كان على ثقة أن العقاب بسبب وقوع مكى فى قبضة الشيخ ، العمدة لا يزال يفكر فى مزيد من العقاب للخفيرين الفاشلين . . رزق ومكى .

حاول مكى أن يقبل يد الشيخ . . رفض بشدة وبقى ممسكا به .

- فى عرضك يا سيدنا .
- بعد أن تعترف بسبب حرقك للأرض .
- أنا من أحرقها.
- أعرف ذلك .. أنا أريد السبب أو اسم من دفعك .

تدخل العمدة مقترحًا وضع هذا المجرم فى الحجز ، واستدعاء المركز فى الصباح .. رفض الشيخ هلال ، طلب العمدة أن يتحدث إلى مكى على انفراد . جر الشيخ معه مكى وتبع العمدة الذى حاول تخفيف حدته وإقناعه بأن المسألة لا تستحق كل هذه المبالغة ، لم يستجب هلال بأى صورة لمحاولات العمدة الالتفاف على إصراره ، حتى بعد أن أخبره أن أم مكى متوفية ووالده قعيد وأنه أبله وهو نفسه كلفه بالعمل من باب الشفقة والعطف .

- ربنا على الظالم .. الله يخرب بيت من خرب بيتى .

صارخا حضر عرفات واندفع يقول :

- هل هذا حلال أم حرام يا عمدة ؟ ألأنى لم أقبل

بيع أرضى لك تحرق زرعى ؟

- أى أرض يا ولد . نصف البلد ملكى يا ولد . . لم يبق لى غير أرضك !

- البلد كلها تعرف أنك تسعى لشرائها من سنوات ، وأبى رفض وأنا أرفض ، ولن تلمس منها قصبة ولا حتى شبر طول ما أنا حى .

قال الشيخ هلال :

- لا وقت للكلام . اطلب المركز يا عمدة .

عاد العمدة يرجو هلالاً بصوت متراجع :

- لا داعى للمركز . . اسمعنى . . فى الصباح أنا وأنت نبحث الموضوع ونحله .

- أبدا .

- لا داعى للفضائح يا مولانا .

- الحق أهم من كل شىء .

- لن يضيع .

- لو تركناه ساعة واحدة ضاع .

- استر على الناس .

- لست أنا الذى يقال له ذلك .

- أنت لا تعرف الناس ومقالبها .. هذه بلد غضب الله عليها .

- المركز هو الذى يتولى عقاب مدبرى المقالب .

- أعدك أن أحلها .

- الآن ..

صرخ عرفات :

- زرعى يا سيدنا .

دفعه العمدة فى كتفه .

- انكتم يا ولد . لن يصدقك أحد .

سأل الشيخُ الخفير الذى تحت يده :

- من الذى كلفك بحرق الزرع ؟

لم ينطق .

قال الشيخ :

- إذا لم تنطق سأجرك الآن إلى المركز ، مادام العمدة لا يريد استدعاءه .

تململ مكى لحظات ولم ينطق ..

قال الشيخ لأحد الواقفين :

- اذهب إلى حمدى صاحب الميكروباس واطلب

منه أن يحضر حالا لمشوار عاجل إلى المركز .

عاد العمدة يطلب من الشيخ التأنى والانتظار حتى الصباح . رفض الشيخ وطلب أن يأتى حمدى بسرعة .

وأكمل :

- ودُق على كل أبواب البلد لكى يحضر أهلها ويحكموا بأنفسهم .

أوقف العمدة الشاب الذى تحرك فى اتجاه البلد ، وقال للشيخ هامسًا :

- الحقيقة أن الولد عرفات لا يحسن معاملتى أمام الناس وخاصة فى حضرة الضيوف من المديرية والمحافظة ، ولذلك كلفت الخفير بحرق قيراط واحد ، على سبيل قرص الأذن ، بعد أن نبهته مرارا ولم يرتدع .

سأل الشيخ هلالْ عرفات عن صحة كلام العمدة . أقسم بأن ذلك لم يحدث أبدا وأن السبب هو رغبته فى شراء الأرض ؛ لأنها تفصل بين أرض

العمدة والترعة . قال الشيخ :

- لا أمل إذًا إلا فى إبلاغ المركز .

- يا سيدنا الشيخ . . .

- إلا إذا . . .

- طلباتك يا مولانا .

- تدفع تعويضا لعرفات عما أصابه .

رفض العمدة وأصر هلال ، وأخيرا أذعن العمدة ، وقدرت الخسائر بعد جدال طويل بألف وخمسمائة جنيه .

أحضر العمدة ألف جنيه ووعد بدفع الباقى بعد أيام . . رفض هلال وعرض إكمال المبلغ بخروفين أو عجل بقر . . كان العمدة يتنفس بصعوبة ويسب ويلعن ، وبدا واضحا أن الموقف حرج للغاية والغيظ يخنقه والشيخ يحاصره تماما . . أخيرًا وافق ، سحب عرفات خروفين صغيرين . استيقظت القرية كلها . . فقد سرى الخبر برغم محاولة كتمانه ، كل من رأى النار قص القصة مضيفا القليل من التوابل ، وقبل أن ينفضّ السيرك كان الشيخ فتح الباب قد وصل وعلم

بكل شيء ، همس فى أذن جاره بصوت قصد أن يسمعه هلال : لم نسمع من قبل أن من عمل الشيوخ الجرى وراء الناس فى الغيطان . . لكنه زمن العيال .

بعد أن أتم مهمته مضى الشيخ هلال ، وقال العمدة :

- القيامة لابد ستقوم . . لم نر أبدًا شيوخًا تفعل ما فعله هلال . . من أين جاء هذا الولد ؟

الله يسامحك يا شيخ فتح الباب . . أنت السبب .

- لم أطلب أن يخلفنى يا حضرة العمدة .

قال عم رضوان :

- الحمارة هى السبب .

وقال إسماعيل :

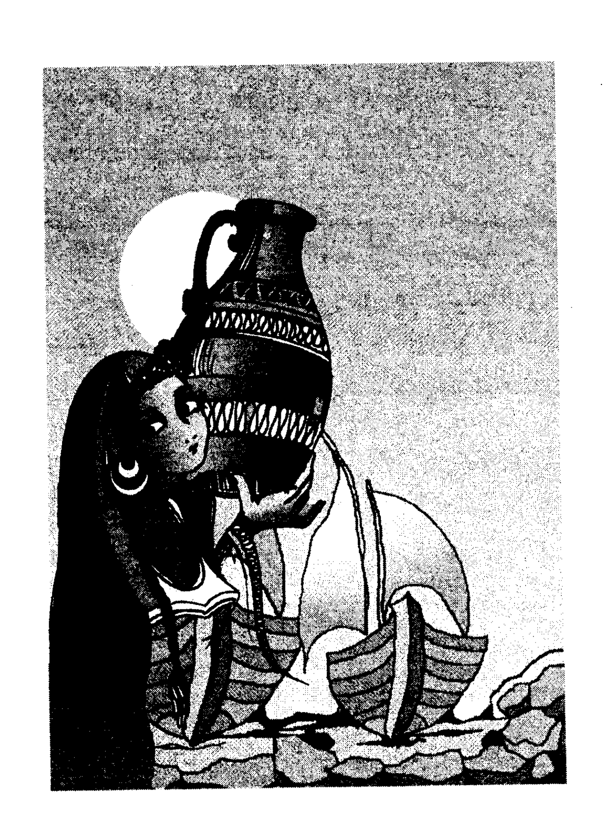
- الأرض هى السبب .

ثار العمدة :

- أى أرض يا إسماعيل أفندى ؟

أسرع إسماعيل يقول حرصًا على علاقته بالعمدة :

- الأرض التى تعثرت فيها حمارة الشيخ فتح الباب .



(٤)

نسمة رقيقة عذبة .. هكذا أراك وأنت تمرين ، تحملين على رأسك صفيحة من الزنك مملوءة بالماء تمشين الهوينى فى تناسق وهدوء ، أحاول أن أثقب بنظراتى أهدابك السود الطويلة التى غطت عينيك كستائر الأحلام ، وأخفت عنى جوهرتين تسبحان فى بحيرتين من الجمال والألق .

لكن أهدابك الحنون لا تلبث أن تشفق علىّ فتؤوب إلى موضعها وتفتح الأبواب التى تغلق المحارات حيث يبيت اللؤلؤ النفيس ساكنا وديعا .

ترسلين النظرات الحيية إلى الطريق الذى يمتد تحت قدميك ، ثم تنثرين النظرات العجلى هنا وهناك ، ولابد أن بعضها يسقط علىّ ، فأحاول أن أخفى نظراتى حتى لا تُحسب علىّ ، أنا فى موقفى الدقيق الحرج .. أجلس إلى مصلاى فى الصباح الندى الباكر أو قبل الغروب ، فهما الموعدان

اللذان ضبط قلبى عليهما صلواته الضارعة إلى الله وإليك ، راجيا عطفه سائلا المولى أن ينبه قلبك لنداء قلبى .

كم حاولت أياما أن أحدق فى عيونك الناعسة ، بحثًا عن الأسرار التى تسكن أعماقها ،فليس من حق قلبى أن يوجه نداءه أو يلوح لقلب تسكنه أسرار أو تخالجه همسات قلب ثان .

فلتحكى لى يا عيون . أفصحى عن سر قلبك حتى تهدأ الروح المتقلبة فوق جمر اللهفة والحيرة .

ما أجمل وأبهى طلعتك وأنت تخطرين تحت ثقل الماء ، وجسمك الفارع الممشوق يمضى نحو بيتكم ، وعلى الوجه الصبوح ابتسامة وضاءة . لا يفتر عنها الثغر ولا تبوح بها الشفتان . . ابتسامة تغمر الكون لا أدرى مصدرها ، تشع من الملامح الفاتنة ، فيسقط الندى على النبت الظمآن . . الخدان تحت العينين يحضنان الأنف الصغير ، وتحت الأنف شفتان حمراوان فيهما دسامة وسخاء ، ويستقر الجميع فوق ذقن صغير ومستدير يزينه طابع حسن .

تحمل الرأس ووعاء الماء رقبة أسطوانية بيضاء قوية . . .

ها هو بدنك يتلوى كثمرة ناضجة من ثمار الربيع المتلهف لأشواق الحب ، فإذا لقدومك لغة وحوار ، وما بينهما فكر . . فكر يلتهم رأسى ويقتات على دقات قلبى الذى هام بك منذ رآك أول مرة ، وقد بزغت فجأة بين بنات البلد . . عروس جديدة تفتحت وردتها وتألقت بها البساتين .

أراك وأنت تدفعين يد الطلمبة بقوة فيتفجر الماء من فمها ويتدفق راسمًا قوسا بللوريا عريضا تتناثر ذراته اللؤلؤية وتسقط جميعا فى السطل الفارغ . . يعانق الماء قاع وجدران الزنك فيرويها ، وأبقى هنا فى مصلاى أراقبك منتظرًا . . لا تغيب عن فكرى حساسية موقفى الدقيق .

هل يحق لى أن أنظر إلى النساء ؟ قال المصطفى : نظرتك الأولى لك والثانية عليك .

هل يحق لقلبى أن يتأثر ويطرب وينبض ، ولروحى أن تهفو ؟

إن فى عينيك المتألقتين بوهج الشباب والطهر تكمن آيات أبدعتها عظمة الخالق .. وعندما انعكست مرة نظراتها على مرآة روحى حلقت فى سماوات غير السماوات ، وسبحت فى بحار غير البحار ، ومشيت على أرض غير الأرض . فهل يحق لى ؟

هل يحق لى أن أحتفظ فى ذاكرتى بمرآك وأنت تمشين وتوقعين على الأرض كما يوقع الموسيقىُ البارع على آلته بحنان أصابعه ، لينظم الألحان فتتعالى فى أبهاء الوجود أصداء سيمفونية الجمال كالتى تتقطر من خطوك الواثق الجميل .

هل يحق لى أن أحتفظ فى رأسى بصورة قوامك النبيل منذ أن ألمحه ينحنى على سطل الماء ، وتمدين إليه كفيك فتقبض إحداهما على شفته العليا وتميله جانبًا وتسمح للأخرى بالدخول تحته ، وتتعاونان فى رفعه إلى رأسك ، وما يلبث الماء الزائد أن يسّاقط على بدنك دفقة بعد أخرى ، ويبتل ثوبك الفضفاض فليتصق بصدرك وبطنك ، ولكنك تمضين فى براءة

لا تعبأين ، بينما نهداك يناوشان الريح ويشربان من ماء الدلو المعطر بعبق البدن الطاهر ؟

هل يحق لى أن أستبقى فى مخيلتى مشهد قدميك المضغوطتين فى حذاء صغير ذى شراشيب وهو يلمس فى رقة وجه الأرض ؟

هل يحق لى أن أمضى فى خيالاتى التى ألهمتنيها ، فأتصورك كالجدول المندفع من فوق الجبال محتشدا بالحب والشهوة يرتطم بالصخر فى غمرة البحث عن طريق ، ولا يبخل على كل ما يلقاه بالعناق والقبل ؟

هل يحق لمزاجى المرهف وشبابى المختزن وبدنى المشبوب أن يرسم لك صورة تنقل إلى مخدعى عالمك البعيد ، لعله يرطب نار فؤادى ؟

هل يحق لى أن أخالك معى فى بيتى ترفلين فى حناياه الباردة الكئيبة ، فتتحولين فيه إلى مصباح منير ، تبسم له الجدران التى اعتادت العبوس من فرط ما تجرعت وكابدت طويلا من الظلمة ؟

هل يحق لى أن أتذوق طعم الرعدة التى تسرى فى

كيانى كلما تصورتك تجلسين على حافة هذا الفراش وقد رفعت عن رأسك طرحتك السوداء وبدت خصلات شعرك الأسود الطويل الذى يبرق فى الليل بنور اللذة محاولا أن يثور على حصار « التربيعة » الخضراء المزينة بزهور صغيرة يفوح منها عطر آسر .

قلت : تعال إلى جوارى .

آه يا ربى . . هل قلت حقا : تعال إلى جوارى ؟

ها هى الرعدة تسرى فى بدنى من جديد وترجنى رجًا ، وأغمض عينى فأجد نفسى وحيدا فى هيكلى الذى لا يفتأ يقهقه فى سخرية وازدراء .

لقد قاومت كى أظل فى حظيرة الله مخلصا له الدين والنجوى والدعاء والقرب ، لكن طيفها قوى وتأثيرها ساحر ، وسمتها الهادئ الوديع شيطان يتلبسنى أينما ذهبت .

يبدو أن القلب الصحراوى قد ابتل بمطر الحب ، إذ وجد النور الأبهى يتفجر من عين أرسلها الرب ، ومسح النور على صفحة روحى فاخضرت ، فإذا كان خطوى نحوك سيرًا على درب النزق أو ارتحالاً صوب

الغواية . . فليس لى قدرة على ذاك السبيل .

هاأنذا بين يديك يا ربى أمرح فى أحضان آياتك ، تسقط على شمسك وتظلنى سماؤك ، فاشملنى بعطفك واحفظنى من الزلل واعصمنى من الضلالة ولا تشح بوجهك عنى فليس لى إلاك .

إننى هنا وحدى تحت التوتة على بساط خضرتك ، يمتد الخلاء أمامى إلا من الأطلال البعيدة والنخلات الباسقات فى نهاية حقلنا الحبيب ، أحاول أن أطالع بعض صفحات من سيرة الرسول وصحابته أنوار الأمة ، فإذا بها تمر بى وتحيينى بتحية تشبهها ، ثم تستأنف سيرها الوئيد وخطوها الناعم الذى لا يكاد يمس تراب الأرض ، وتنساب على حافة الحقل تزفها الأشجار وتحتفى بها الورود والندى ، بعد أن بعثت بابتسامة ، ولم أكن قبل اليوم أدرك تأثير ابتسامة الأنثى الجميلة على رجل مثلى ليس للمرأة فى رأسه وجود . .

أنت يا رب القائل «ولا تنس نصيبك من الدنيا » فكن عونى على هذا الحب وهذه الرغبة ، وكن

يا خالقى نبع هداى ولتشملنى مشيئتك ، وليتها تطابق مشيئتى ، وحاشاى أن أطلب ما لا ترضاه لى فارض يا رب لى ما هامت به روحى وتعلقت ، حتى يقر قرارى . فأنا على الصراط أسير سير الحذر ، فانظر إلىّ بعين عطفك ورحمتك فلايزال فى إثرى طيفها ، ولازالت ملامحها اللطيفة تحاصرنى وتعانقنى وتلمس بدنى الذى طهرته لك ، وقلبى يكاد يجرنى لطريق أخشى ما أخشاه أن تكون فى نهاية الغواية والضلال فيا قلبى اتئد ، ولا تسمح بأن تراودك الأمانى .

(٥)

بعد صلاة العشاء توجه كما عزم إلى بيت حسنين كمونة ، سأل عنه ولده جابر فعلم بمرضه الشديد وحيرة الأطباء فى علاجه .. وضع يده على رأسه وبطنه وكل موضع اشتكى منه حسنين . قرأ القرآن وختم بالدعاء ، ولم يغادر بيته إلا بعد أن سكن ألم الرأس الحاد الذى كان يعانى منه حسنين وهدأت معدته ، وسرعان ما استسلم للنوم الذى امتنع عنه عدة ليال .. شكره أصحاب الدار وهم يعلنون أمنيتهم بتمام شفائه .. قال :

– الأطباء بإذن الله بأيديهم العلاج ونحن ليس بإمكاننا إلا قراءة القرآن والدعاء .

سأله شقيق جابر ذو السنوات العشر :

– وهل يصلح القرآن والدعاء مع جاموستنا التى توشك على الولادة .

ابتسم الشيخ هلال ووضع يده على رأس الصغير .

- يصلحان لكل شيء ولكل مخلوق ولكن لا غنى عن الخبرة والعلم .

خرج الشيخ هلال متوجها إلى عدد من البيوت المتناثرة هنا وهناك . . بيوت متواضعة من الخارج ومن الداخل . . تقبع وحيدة فى الظلام . . تتضاءل جدرانها وتقعى أمام الطريق الكبير الذى يقطع القرية . . لا تبدو من نوافذها غير أضواء شاحبة ، ليست غير نقاط صفراء باهتة على صفحة الليل المعتم . نقر الشيخ على أبوابها وسلم الأمانات لأصحابها سريعا ، وفى شبه صمت إلا من التحية . . دون أن يذكر أسماء من بعثوا هذه الأمانات فقد طلبوا منه ذلك ، باعتبار أنها ليست منهم وإنما الذى أرسلها مالك الملكوت .

كان الشيخ حريصا فى كل مناسبة أن يذكّر البعض ولو فى جلسات خاصة ودودة وناعمة بأهمية الصدقة ، ودعم الفقير حتى يأمن المجتمع والناس ويسود الحب . بمنتهى الأدب كان الشيخ يرجو الأثرياء ألاّ يتوقفوا عن العون حتى يبارك الله ، ويرزق

بالمزيد ، ويرحم ويستر ويشفى ويوفق ويحمى ويهدى وينعم . .

بعد هذه الرحلة التى تزوِّد الشيخ بالروحانية وتعينه على أن ينقى روحه ويفرح قلبه ويرضى قليلا عن نفسه . . مضى إلى صديقه بيومى الشربينى ، وكان قد التقاه بالأمس قبل أن تبدأ مباراة كرة القدم التى قام الشيخ هلال بالتحكيم فيها . . عاتبه على قلة زياراته ، أعلنا فى صوت واحد اشتياق كل منهما إلى دور شطرنج .

تحدثا طويلا فى أحوال البلد وحال بيومى ودراسته التى يعكف عليها للحصول على الماجستير ، إلى أن قال بيومى وهو يبسط رقعة الشطرنج ويتعاونان فى رص القطع :

- هل تحب المصارحة ؟

- جدا . . وقبلها حول الراديو إلى محطة أم كلثوم ودعها تشدو .

فتح بيومى الراديو فوجد فريد الأطرش ، هز الشيخ رأسه موافقا .

قال بيومى :

- أستطيع إذن أن أنقل إليك بعض ما يقوله أهل البلد .
- قل بسرعة . . أثرت فضولى وفزعى .
- يقولون أنك تتدخل فى غير شئونك .
- وما هى شئونى ؟
- الوعظ والإمامة .
- فقط ؟
- يقولون ذلك . . عليك الدور . . العب .
- ورأيك ؟
- أنا معهم إلى حد كبير .
- فما ظنك بأناس لا يفيدون مما يقال بالمساجد .
- ليس عليك هداهم .
- وإذا سعيت فى ذلك قدر الجهد .
- فى رأيهم تتجاوز حدودك .
- ورأيك أنت .
- أظن أن الصواب معهم .

- وهل ترى ذلك نهجا يطور حياتنا ؟
- التخصص مطلوب .
- ليس المهم التخصص بقدر المعرفة .
- سيختلط الحابل بالنابل . . تنبه لوزيرك .
- كيف؟
- هل يمكننى أن أنصح البنّاء كيف يبنى ، وواحد من المزارعين يمكن أن يفتى فى الدين ؟
- إذا كان يعلم وبالحجة أقنع . . المعرفة ليست حكرا لبعض الناس دون غيرهم .
- سيتسبب ذلك فى خلق المشاكل .
- المشاكل تنتج من عدم التسامح . . من عدم قبولك لأفكارى ، وعدم قبولى لأفكارك . . لا أقصد القبول أى التسليم . . وإنما استقبالها ومناقشتها .
- كل شىء قابل للمناقشة ؟
- طبعا . . أنت تستدرجنى لتأكل قطعى . . خسارة ضياع هذه الطابية .
- حتى الله ؟

- أول ما يجب أن نناقشه ، إذا كان محتاجا لمناقشة .
- أحيانا أحس أنك لست رجل دين .
- وهنا تكمن المشكلة .
- . . .
- الناس حريصة على ألا ترى فى رجل الدين إنسانا ، وإنما جهازًا متخصصًا فى الدين فقط ، حتى أنهم لا يتصورون أنه يأكل ويشرب وينام ويتزوج .
- هذا إجلال .
- بل هى محاولة لإزاحته من طريقهم .
- قد يكون رفضا للوصاية .
- ليست وصاية بقدر ما هى دعوة ، وليست بالجبر ولكن بالاختيار . . وليست بالقوة ولكن بالسماحة والمودة « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » وهذا لا يكون فى الدين فقط ، وإنما شرعه الإسلام ليكون أسلوبًا فى كل أمر من الأمور

حتى فى الخلافات والصراعات وطلب الحقوق .
دخلت أخت بيومى الصغيرة تحمل تحيات أمها وصينية عليها دور الشاى الثانى وطبقًا به ترمس وحمص وطبقا كبيرا من الخوص به يوسفى . .
- تفضل يا شيخ هلال .
- ما كل هذا يا جماعة ؟
- أنت لم تدخل البيت منذ شهور .
- وهل هذا جزائى ؟
- قلت منذ قليل . . كلمة استوقفتنى وهى لا شك غريبة .
- إلى هذه الدرجة !
- قلت ، محاولة إزاحته من طريقهم . .
الإزاحة . . كلمة مزعجة .
- الناس أصبحت تحس نقصا فى أغلب مكونات ومستلزمات حياتهم ، وبالتالى سيطرت عليهم حالة عامة من الرغبة فى أن يقل الآخرون حتى

يتحقق لهم قدر من الرخاء والتحسن . . فقد تجد البعض يفرح إذا سافر شخص خارج القرية ، وآخر سافر إلى الرفيق الأعلى ، وثالث جلس فى بيته لا يخرج ، ورابع مشغول جدا بحاله ، وتأتى مسألة التخصص لتكمل الدائرة ، فالمدرس عليه أن يشرح للتلاميذ فقط ولا ينبه إلى انتشار الأمية ولا قذارة البيئة ، وعلى المهندس الذى يبنى الجمعية ألا يعترض على حركة البهائم ، أو نظام اختيار العمدة أو لعب الأولاد فى الطرقات ، وبالتالى ليس على رجل الدين أن يشارك فى الإصلاح خارج المسجد ، وألا يتكلم إلاّ فى تفسير القرآن ويوم القيامة وعذاب القبر وأنواع القراءات والطرق الصحيحة للعبادات .

– لكن التدخل له حدود . . تفضل الشاى .

– . . الذكاء الاجتماعى مطلوب . . فمهما كانت مسئوليتك كإنسان وسط البشر ومحاولتك الإصلاح ، فهناك مسائل تفصيلية تخص

صاحب المهمة ، أو المتخصص ، لا يجب أن تخوض فيها .

- إذًا أنت توافق على أن هناك حدودا يجب مراعاتها .

- طبعا . . الرسول مثلا يقول للناس . . « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» لكنه لن يقول لكل إنسان كيف يتقن عمله .

- وفى القرآن الكريم دعا الله الرجال ألا يأتوا نساءهم كالبهائم ، ولكن عليهم أن يقدموا لأنفسهم ، ودعاهم ألا يأتوهن من غير الموضع الذى أمر الله وهو الملائم جسديا ، ولم يتطرق إلى تفاصيل العملية وآليات التنفيذ .

ابتسم الشيخ وضرب كفا بكف .

- لماذا وقع اختيارك على هذه الأمثلة ، بالذات ؟

- دالة أم غير دالة ؟

- دالة يا سيدى .

- المهم إن فكرة الإزاحة جديدة .

- ليست جديدة . لأنها نابعة من فكر الزحام

وثقافة المحشورين فى الأرض ، وعدم توفر خدمات ووسائل كافية لاحتياجات الناس .

- اليوم .. يوم مشهود ، لأنك تقول دررا..

فِكْر الزحام وثقافة المحشورين فى الأرض .

- أود أن أركز فى الشطرنج قليلا .

- كل اليوسفى إذن ، لن يمنعك من التفكير .

ساد صمت عميق لا يكاد يخدشه الشهيق والزفير.. العيون تحدق فى القطع .. القطع تتربص ببعضها .. الحركات متعارضة .. الأهداف متناقضة .. لا توجد ثغرات تشجع على نقل قطعة مهمة .. تتحرك قطعة صغيرة فى حذر.. يعاود كل لاعب التفكير فى خططه بعد حركة خصمه .. فجأة تقدم بيومى بحصانه فى قفزة باهرة مهددا الملك والوزير معًا .. فزع هلال من الورطة .. نقل الملك بعيدا عن هجوم الحصان واضطر لقبول موت الوزير ، مضت اللعبة بإيقاع أسرع .

هاجم بيومى بحماس .. أسقط العديد من القطع حتى مات الملك .

صفع هلال القطع وهو يقول :

- لا يصلح الشطرنج مع الكلام .
- دور ثان إذًا بدون كلام .
- سيكون على أرضى غدا .
- الوقت لازال مبكرا .
- المهم ، أود أن أعرف رأيك فى المشروع الذى أنوى السعى لتحقيقه بكل الوسائل وهو مجمع كبير يضم فصولا لمحو الأمية ووحدة صحية ومكتبة ومسجد للرجال والنساء ومدرسة إعدادية .
- المكتبة ضرورية . ويكفى فصل واحد لمحو الأمية ، والمدرسة الإعدادية ببنها .
- وجود المدرسة ببنها يمنع الآباء من الموافقة على استكمال الأبناء تعليمهم .
- لا يصلح أن تكون المدرسة ضمن المجمع .
- لكنها مطلوبة .
- هذه مسئولية الوزارة ، والمسجد موجود يمكن أن تضاف إليه مساحة للنساء .

- المسجد الموجود متهالك ، والبلد فى حاجة إلى مسجد كبير ، جيد الإضاءة والتهوية وبه سجاد وميضأة كبيرة وحمامات نظيفة ومنبر يليق بمهمته ومئذنة .

- التكلفة ستكون كبيرة جدا .

- فكر معى وادرس الأمر جيدا وقل رأيك غدا . .

عزم الشيخ أن يمر على متولى البقال ليشترى حفنة من الكراملة ليوزعها كما اعتاد على الأطفال الذين يلقونه فى الطريق . . لكنه لو كان قد مكث فى دار بيومى دقيقة واحدة أخرى لما رآها . .

كانت تستدير عائدة من دكانة متولى . . كل نور المحل عليها ، وهو قادم من عمق الطريق المظلم . . دنا منها وحياها . . تسلمتها الظلمة الجديدة . . لم يجد الفرصة ليشترى حلوى الأطفال ، وسع خطواته حتى لحق بها ، وسألها :

- كيف حال والدك ؟

- بخير .

- الوقت متأخر .
- جئت أشترى كمون .. أخى محروس عنده مغص .
- ألف سلامة .
- تسلم من كل سوء يا سيدنا .
- ألا تخشين الظلام ؟
- بلدنا أمان ، الحمد لله .
- الكلاب .
- تعرفنى .
- هى لا تراك .
- تحس بى .
- إذن تخرجين كثيرًا بالليل .
- لا .. نادرا .
- فكيف تحس بك الكلاب ؟
- الكلاب إذا رأت شخصا مرة فى ليل أو نهار تعرف أنه من البلد وليس غريبا .
- واضح أنك تحبين الكلاب .
عند مفترق الطرق وقفت :

- شكرا يا مولانا .. عن إذنك .
- سأوصلك .
- السكة معروفة .
- أود أن أطمئن على محروس .
- ربنا يخليك .
انتهى الكلام .. لن تتاح له فرصة مثل هذه ليتحدث إليها ..
- هل تصلين ؟؟
- .. الحقيقة
- لا تصلين .
- بصراحة .. أصلى بصورة غير منتظمة .
- أنت لا تتصورين جمال الصلاة وتأثيرها على نفسك .
- فعلا عندما أصلى .. أجد نفسى مرتاحة وخفيفة .
- إذن لماذا لا تنتظمين فيها ؟
- أحيانا أسرح .
- فيم تسرحين ؟

أدرك أنها تبتسم .. قال :
- ربك سيفرح جدا بك .
ابتسمت أكثر وقالت :
- ولماذا أنا بالذات ؟
- ربك جميل يحب الجمال .
تعثرت فى شىء أو لا شىء فمد يده وأمسك بها .. قالت :
- الناس كلها فرحانة بما جرى .
- الحمد لله .. وماذا جرى ؟
-يقولون أنك أدبت العمدة .
- لم يحدث شىء من هذا .
- لا أظن الناس تكذب يا سيدنا .
- اسمى هلال فقط
- لا أستطيع يا سيدنا .
- اسمعى كلامى .
- طيب يا شيخ هلال .
- من الذى حكى لك ؟
- كل الناس حتى الستات على الترعة ..

وسمعت رجالاً كثيرين يتكملون فى الشارع وعلى المصاطب . . قالوا إنها حادثة كبيرة لن ينساها أحد فى يوم من الأيام .

- مبالغات يا آنسة انشراح .
- آنسة .
- مبالغات . .مجرد أنى وقفت مع الحق .
- ليس الوقوف مع الحق فقط ولكن ضد من ؟
- الواقف مع الحق لا يفكر ولا ينظر إلى الباطل وقوته .
- نسمع عن كثيرين يخضعون للظلم .
- أحيانا تكون ظروفهم أقوى منهم .
- . . .
- قلت إن الناس فرحانة . . وأنت ؟
- فرحانة أكثر منهم .
- لماذا أكثر منهم ؟
- لأنى أسمع أن العمدة طماع وظالم ، ودائما كنت أدعو ربنا أن يبعث من يوقفه عند حده .

- لماذا لا تذهبين إلى المدرسة ؟
- بعد السنة السادسة طلب أبى ألا أذهب .
- ورأيك ؟
- الحق مع أبى ، لأن المدرسة الإعدادية فى بنها ، وسوف تحتاج مجهودًا وسفرا ومصرفات وبيتنا يحتاج إلى خدمة . وصلنا . . اتفضل .
- تفضلى أولا وأبلغى الوالد .
أسرع بدوى ليستقبل الشيخ بحرارة ، فقال له الشيخ هلال :
- آسف لحضورى المفاجئ فقد علمت من الآنسة انشراح أن محروس بعافية .
- بيتك يا سيدنا . . حصل لنا الشرف . يا ألف مرحب . .
- هاتوا لنا الغلام . .

جاءوا بمحروس . قرأ الشيخ القرآن وهو يمسح على رأسه وبطنه وقلبه ، طلب إعداد قربة ماء ساخنة توضع على بطنه فهى ليست إلا لطشة برد ، ولا يأكل

الليلة إلا ملعقتين من عسل ومشروبات ساخنة ، ثم انصرف .

كانت خطوات قليلة تفصله عن بيته .. لكنه استدار إلى جهة أخرى ، فقد كان بحاجة أن يتذوق حلاوة الحديث الذى جرى مع انشراح .. يستعيده ويستعيده . يتركه يتقطر ببساطته وعمقه وصدقه فى روحه .. يروى به البذور التى نثرتها عيناها فى قلبه . وفى الوقت ذاته كان بدوى مع زوجته وأولاده يذكرون الشيخ بالفخر والمديح ، ويدعون له بالفلاح والسعادة وأن يقويه الله ليرد الظالمين الذين لا يعرفون الرحمة ، ولا يتذكرون لحظة أن الله أقوى من الجميع .

(٦)

لم يكد بدوى يمد يده إلى طبق الجبن ويكسر لقيمات من الرغيف الكبير المستدير المرحرح الرقيق حتى دق الخفير الباب ، يطلبه للقاء العمدة . . عبَّر بدوى عن دهشته لدعوته الصباحية الملحة . . ومضى يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . . طالبا ستر الفتاح العليم .

عندما مثل أمام العمدة ، قذفه على الفور بسؤاله :

- عندك بنت يا بدوى ؟

استولى القلق على بدوى ، واحتار بماذا يجيب ، ربما كان يرمى كلامه على انشراح . عزم أن يتجاهل ما يمكن أن يدور بخاطره . . قال :

- عندى .

- عليها أن تجىء لتساعد الحاجة أم منصف .

تظاهر بدوى بالضحك وقال :

- بنتى يا عمدة فى السويس مع زوجها .

- بدوى .
- نعم يا حضرة العمدة .
- عندك بنت هنا فى البلد . اسمها . . اسمها .
أسرع الخفير رزق قائلا وهو يميل على العمدة :
- انشراح .
لم يستطع بدوى المضى فى التفلت من حصار العمدة .
- قصدك بنت محسوب . الله يرحمه .
- لا . . لن يرحمه .
- ادع له كى يرحمه . .
- لن يتقبل الله الدعاء .
- لماذا يا عمدة ؟
- أنت تعرف لماذا يا حبيبى .ليس فى البر كله أسوأ من محسوب . . والحمد لله أنه راح . دعنا من السيرة السوداء .
- أمرك يا حضرة العمدة .
- ابنتك .
- قلت لك ابنتى فى السويس .

- ابنتك أو ابنة أخيك تحضر من الصباح لتساعد أم منصف .

مرت لحظات قبل أن يخلص بدوى لسانه من الحيرة . .

- ليس بإمكانى التصرف فى شىء لا أملكه .

- بإمكانك .

- لا أفهم .

- هى فى حكم ابنتك .

- لكنها يتيمة وضعيفة .

- كلمة واحدة . . من النجمة تكون فى الدار .

- يا حضرة العمدة . .

- ولا كلمة . . على شغلك . وبالمناسبة ، حالة شجر البرتقال لا تعجبنى . ظهرت على الأوراق بقع سوداء . . أم أنك كبرت .

انحنى بدوى وغادر الدوار وهو يتعثر فى أفكاره . . يشعر بشبه دوار ، يكاد يفقد معه توازنه ورؤيته .

نادى العمدة الخفير رزق وقال له :

- هات الشيشة وتعال احك لى حكاية هذه البنت

من طقطق إلى السلام عليكم . . هل أنا فى هذه البلد آخر من يعلم ، أم يا ترى طرطور وشرابة خرج ؟ أحسن شىء . . أطردكم وأكلف بدلا منكم مجموعة من الحمير يخدموا البلد ويفيدونى أكثر منكم .

كيف يفرط فى انشراح ؟ . . كيف يجلب لها الإهانة بأن يحولها من سيدة فى بيتها إلى خادمة فى بيت العمدة ؟ . . وماذا يقول لأمها لو ظهرت فجأة أو أخبرها أحد ؟ . . وماذا يقول لله إذا سأله عن خيانة الأمانة ؟ . . لو كانت ابنته التى من صلبه لما أحس بما يحس به الآن . . هو وما يملك فداء لقمة العيش . . لا . . حتى لو ابنتى لرفضت . . كيف أتركها وسط وحوش . . العمدة وزوجته . . بل العمدة وزوجته ربما يكونان أرحم من بناته الخمسة ، لم تتزوج منهن إلا واحدة . . ورغم ذلك فهى دائما فى الدار . . ابنتى ضعيفة ولا تحتمل الخدمة فى دوّار لا أول له ولا آخر . . مبنى فى حجم مدرسة يحتاج إلى عشرة . سوف تضيع البنت . . مؤكد سوف تضيع . .

لن أتركها تضيع أو تهان . .

فوجئ بدوى بأنه يدخل إلى خلايا النحل دون أن يلبس القناع والقفاز . . فإذا النحل ينقضُّ عليه ويحيط به من كل ناحية ، وهو يدافع ويدفع ويبتعد مضطربا ومتعثرا والنحل وراءه ، رفع قميصه الدمور مقلوبا ليغطى وجهه ، لكن النحل كان قد حاصره ، ونفذ داخل القميص ، أسرع إلى الخص ، وأغلقه على نفسه ، خلع قميصه من رأسه وبه النحل وأخذ يضربه فى الأرض عدة مرات ، ثم فتح باب الخص وألقى القميص بعيدا وبقوة ، فتعلق بشجرة برتقال . جلس قليلا يلتقط أنفاسه . . ترك القميص ومضى يحدق فى أوراق الشجر باحثا عن البقع السوداء وهو يتمتم .

– الجنينة كما الفل . . والبقع السوداء فى قلبك يا عمدة .

بعد عدة خطوات لاحظ البقع فى أفرع عالية خفيت عليه ، واستولت عليه الدهشة .

– كيف رآها هذا الرجل وهو أحول ، وفى سيره يندفع ويتخبط ويثرثر ويتلفت ويستحيل

بطريقته هذه أن يلمح شيئا .. لكنه نمر .

قرر أن يبعد طيف العمدة عن رأسه حتى يستطيع العمل دون أن تفلت منه واحدة .. كان رعبه من العمدة كافيا ليقلب كل ورقة على وجهيها ويكاد يسألها عن صحتها .. إلى أن سمع صوت انشراح تناديه . ولما دنت ، قالت : وضعت الغداء فى الخص يا أبى هل تريد شيئا آخر ؟

صوب نحوها عينين حزينتين وقلبًا واجفًا ، وهمَّ أن يخبرها برغبة العمدة ، لكنه توقف .. أراد أن يرحمها حتى آخر النهار ، ليس ثمة داع كى يهيل عليها الغم والتعاسة .. هذه البنت الخضراء البريئة الطيبة ، كيف لها أن تنطرح تحت أقدام هؤلاء الناس ؟. ليس من مفر على الإطلاق ..

قالت : هل تريد شيئا آخر يا أبى ؟

قال : لا .. شكرا .. مع السلامة يا ابنتى .

هى ابنتى فعلا .. ويعلم الله كم أحبها ، ومن يمسها بكلمة تغضبها كمن مزق لحمى ..

جاءتنى طفلة لا تتجاوز الثلاث سنوات وهى الآن

عروسة .. نعم .. ليتها تكون عروسة ، فتنجو من بطش الجبارين .. ليس ذلك على الله ببعيد .

مرت انشراح من حقل العمدة إلى حقل مصيلحى وحقل وهدان ثم هندى ، وعبرت الجسر الصغير إلى حقل رمضان العبد وهو حقل الشيخ هلال وأخيه طه وأختهما أسمهان . .لمحت الشيخ هلال يجلس تحت التوتة غارقًا فى القراءة .. تذكرت حديثها معه .. شرع قلبها يدق مع كل خطوة تقربها منه ، كان حديثه لطيفا وحنونا .. ألقت عليه السلام .

- عواف يا سيدنا .

هل يمكن أن يكون هذا صوتها ، تحول إليها وهب واقفا وهو يقول :

- أهلا وسهلا .. كيف حال محروس اليوم ؟
- كما العفريت ..
- الحمد الله .
- البركة فيك .
- لا فضل لعبد أبدًا ، الفضل كله لله .
- عن إذنك يا مولانا .

- فى حفظ الله .

همت بالسير ، فناداها :

- لو سمحت .

- نعم .

- دقيقة من فضلك .

مد يده إلى قفة صغيرة معلقة فى أحد أفرع الشجرة . . تلفتت حولها شبه مرعوبة . . خامرها إحساس بالرضا عندما وقعت عيناها على أعداد كبيرة من « أبو قردان » . . تنقش الأرض بألوانها البيضاء ولمساتها الرقيقة وحركاتها الوديعة . . خرجت يد الشيخ تحمل ثلاث خيارات ، صب عليها من القلة ماء وقدمها إليها .

- تسلى بها حتى البيت .

- لا يا مولانا . أبقها لك .

- أرجوك . .

رفعت إليه عينيها . . استقبل نظراتها بكل ذرة فى بدنه وكل نقطة دم فى عروقه . .تأمل ملامحها عن قرب ، والشمس تحرسها بالضوء . كان فى تلك

اللحظة يحسب أن الشمس تستمد نورها من ذلك الوجه الملائكى الذى يعبر حياته ويمر أمام بوابة عمره .. وهو يود من كل قلبه أن يتوقف هذا الوجه ليسكن فى كل شبر من حياته وفى كل ثانية من عمره ..

كيف يستوقفها طويلا .. كيف ؟ .. ليس فى العالم غيرهما .. والحب أرض وسماء وزرع ونور ..

ودت أن تستأذن فلم تجد صوتها ، وود أن يلمسها فارتعدت جوارحه .. ومضت هادئة وادعة مع النسيم .. تراجع هلال بظهره إلى التوتة . علق ذراعه بأحد الفروع ووقف يرقب ابتعادها خوفا عليها من الأرض الخشنة والعيون الراصدة .. مسح الأفق .. لم تلتقط عيناه أحدا يصوب نحوها نظراته .. عاد للقراءة ، فلم يجدها .. أطل فى الساعة ، لم يبق على الظهر إلا ربع الساعة .. طلب طيف انشراح مهلة لبضع دقائق يعبر خلالها بخياله ويطمئن على دقات قلبه ويسأله عن حقيقة شعوره ، ويشكو له تعذر اللقاء والحوار والنجوى .. البلد كلها عيون .. وهو

الشيخ الواعظ والإمام . . الأحلام تترى وخيول الأمانى لا تكف عن الصهيل ، الحياة شرعت تتراقص وتتلوى . . كشجرة مورقة تتيه بأزهارها وثمارها ونضرتها . .

عندما نقرت باب قلبى للمرة الأولى ، لم تنتظر من يفتح لها ، بل دفعته بأهدابها فانخلع من موضعه . . ومضت تجوس خلال حناياه فيتسع ، وتتشكل فيه دروب لم تكن فيه .

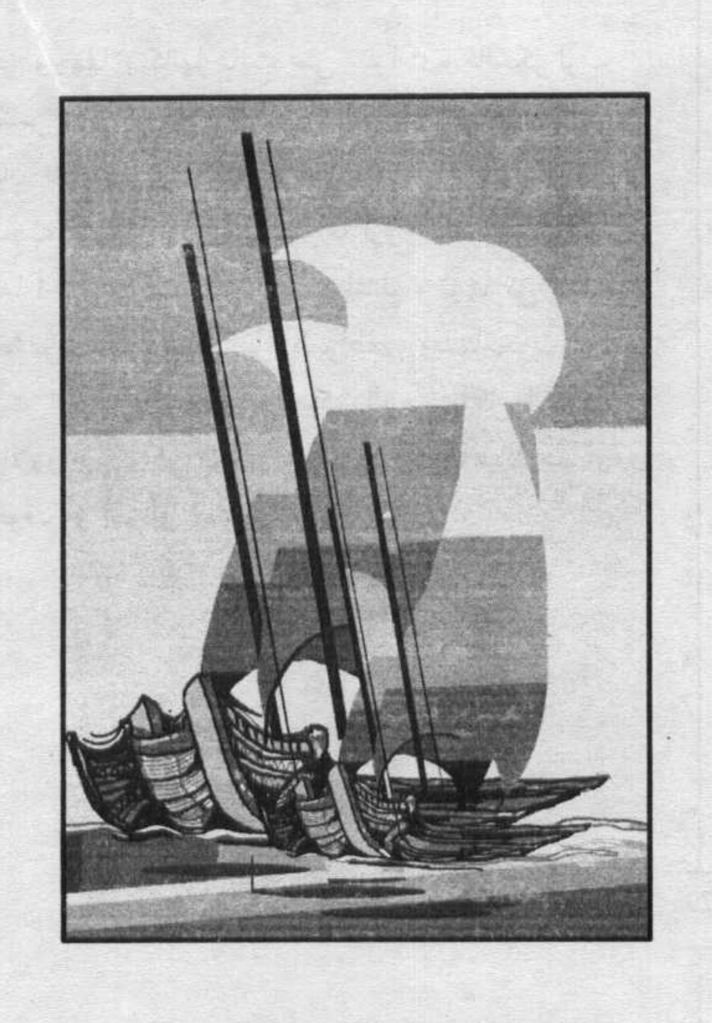
لم أهتم من قبل بأن يكون لى قلب ، ولم أتصور أن تكون له قيمة لو كان له وجود ، أشعر الآن كأن الله خلق لى كيانا بللوريا نابضا ، وعندما يزوره طيفها يرتج وأرتج معه ، حتى لأشعر الآن شعورًا أكيدًا أن وجودها سيكون فى حياتى نقطة مزغردة على كل حروفى الصامتة .

إذا كان الله قد أكرمنى بالتفقه فى الدين ، فإننى أرجو أن يمنحنى هذه المخلوقة التى ستفتح لى كل أبواب الجنة على الأرض . .

لقد غادرتنى منذ لحظات قليلة ، لكنى اشتقت

إلى وجهها ، كأنها غابت عنى سنوات ، فالشكر لرب الناس والشكر لشجرة التوت الحبيبة ، فقدومى إليها كان تمهيدًا لهذا اللقاء وعشا دافئا لطائرين سيجمع الحب بينهما .. الحب .. ما أروع ذلك الشعور ، وما أجدر أن يسود .. شعور لذيذ ، ليت كل البشر يعشقون ويتبادلون أنقى العواطف ويتسامحون .. ليت الحب يصبح هو الحاكم الوحيد لكل القلوب والأرواح .. هل يمكن عندئذ أن يكون هناك هم أو خوف أو ألم أو ظلم ؟





(٧)

رغم أنى صاحب الفكرة فقد أوشكت أن أنسى حفل توزيع الجوائز المقام بهذه المناسبة . . أسرعت إلى الجرن الكبير . . كان أهل البلد جميعهم تقريبا هناك . . فى المواجهة وتحت الأضواء منضدة كبيرة عليها مفرش جوخ أخضر طويل يتدلى من كافة الجوانب . وممثل وزارة الزراعة يبدو سعيدا ؛ ربما لأن صلعته تعكس كل الأضواء ، وإلى جواره العمدة ورئيس الجمعية الزراعية والحاج رجب الباجورى عضو مجلس الشعب وعدد كبير من الصحفيين ورجال الإعلام وبعض الأساتذة من كلية الزراعة والمعهد الزراعى بمشتهر ، يتوسط الجميع سكرتير عام المحافظة مندوبا عن السيد المحافظ . . بدأ الحفل بآيات من سورة البقرة ألقاها الشيخ رضوان موسى شيخ الكُتّاب .

ثم ألقى رئيس الجمعية الزراعية كلمة ، عبر فيها

عن سعادته لأن قريتنا هى أول قرية فى مصر يتم فيها مثل هذا الاستفتاء أو تجرى مثل هذه المسابقة لتحديد أفضل المنتجين الزراعيين ؛ سواء للمحاصيل أو الثروة الحيوانية . ولم يذكر سعد زيدان وهو صديقى ورئيس الجمعية اسم صاحب الفكرة فساءنى ذلك ، لكنى لم أهتم ، وتمنيت للتجربة التوفيق .

تحدث مندوب وزارة الزراعة عن أهمية التجربة فى الارتقاء بالإنتاج الزراعى والحيوانى وتوفير مبدأ التنافسية الذى أصبح سمة أساسية من سمات الحياة المعاصرة فى كافة المجالات ، وجاء دور السكرتير العام الذى حيا الجميع فردًا فردا واعتذر بالنيابة عن السيد المحافظ الذى دعى لاجتماع عاجل ومفاجئ مع السيد رئيس الوزراء . . وامتدح الفكرة وأبدى رغبته فى أن تقلد قريتنا كل قرى مصر . . وصفق الجميع .

دهشت لأن البعض كانوا يتبادلون التهانى ، ولما سألت ، قيل لى : إن البلد كلها تعرف من الذى سيفوز ، فأفضل من أنتج القطن هذا العام وكل عام هو متولى شتات ، وأفضل من أنتج القمح شوقى أبو دومة

وأحسن واحد أنتج الذرة عبده المصرى وأحسن جاموسة : جاموسة حمودة العتر ، وأحسن جمل : جمل على الشناوى ، وأحسن حمار : حمار راشد أبو دقة .

قلت لهم : أليست فكرة جيدة ؟

قالوا جميعا : فكرة ممتازة .

قلت : لكنهم لن يوزعوا أموالا . .

رد كل من سمعنى : المهم التقدير يا سيدنا الشيخ . . المهم يكون فيه من يحس بالناس .

أسعدنى جدا ردهم . . ودهشت لأن الفائزين وأغلبهم فقراء يبحثون فقط عن التقدير مع أنهم فى أمس الحاجة لقرش أبيض .

- والآن . . إلى قائمة الشرف . .

علا صوت سعد زيدان .

- إلى جوائز نالها المخلصون فى العمل . . المحبون للعطاء . .

- الفائزون فى هذه المسابقة عشرة ؛ خمسة لأفضل محصول وخمسة لأفضل ثروة حيوانية

.. الفائزون هم : الأول فى إنتاج القطن
حضرة العمدة السيد / مسعد حجاب ٢١ قنطارا
للفدان ، فليتفضل .

استدار العمدة إلى سكرتير عام المحافظة الذى سلمه ورقة بيضاء كبيرة انحنى العمدة وحياه بحرارة ، واستدار إلى الناس ورفعها عاليا ، وتعالى التصفيق .

علا صوت سعد زيدان وهو يقول :

- الأول فى إنتاج القمح حضرة العمدة السيد / مسعد حجاب ٢٠ أردبًا للفدان .

بدأت الهمهمة تسرى بين الحضور ، وتعالت دون أن تبلغ المنصة الفرحانة ، العمدة يرفع ورقته ويفتح فمه الكبير ، وتلمع سنته الذهبية ، ويرشق الناس بنظرات حادة من عينه السليمة أما عينه التالفة ، فقد كانت تالفة .

انتظر أهل البلد بشوق شديد اسم الفائز الثالث .. وكانت بعض القلوب قد زاد خفقانها وتقلقلت بعض المؤخرات عن الأرض ، وارتعدت عشرات الأيدى التى تهددت آمالها .

- الفائز الأول فى إنتاج الذرة حضرة العمدة السيد/ مسعد حجاب ٢٥ أردبًا للفدان .

صفق البعض وعلا صوت البعض وهم يباركون للعمدة بسخرية واضحة ، فانطفأت البسمة فى وجه الرجل الضخم ذى الكرش الكبير ، يبتسم بأسنانه فقط . واعترضت بشدة بعض الأصوات فى ركن بعيد مظلم .

أسرع سعد زيدان رئيس الجمعية الزراعية يعلن اسم الفائز فى إنتاج الفول .

- شيخ البلد الحاج / زكريا المليجى ١٩ أردبًا للفدان .

تعالت الأصوات المعترضة ، لكن الصحفيين كانوا يصورون ويسجلون ويكتبون ، وبعض السيدات تزغردن .

- الفائز الأول فى محصول البرتقال شيخ الخفراء السيد الشناوى ، الشجرة تحمل ١٦ كيلو جرامًا .

ازدادت الهمهمة وبدأ البعض فى مغادرة المكان ،

وكنت أود أن أفعل ، لكنى تماسكت فى انتظار حضور ومشاهدة بقية المهزلة .

قال سعد زيدان :

- ذكرنا حتى الآن الفائزين الخمسة فى المحاصيل الزراعية ، والآن إلى الفائزين فى الثروة الحيوانية . .

أفضل جاموسة حضرة العمدة السيد / مسعد حجاب (٤٣٠ كجرام) .

أفضل حمار حضرة العمدة السيد / مسعد حجاب (يجرى بسرعة ٣٠ك فى الساعة) .

أفضل بقرة بلدى شيخ البلد (٣٦١ك) .

أفضل جمل السيد / على الشناوى (يجرى بسرعة ٥٠ك فى الساعة) .

أفضل عنزة السيد/ نصر المعداوى (أنجبت ٧ فى بطن واحدة) .

وصفق الجميع وهللوا لأن نصرًا بالفعل يستحق ، وهذا أول فائز شرعى فى نظرهم .

انتهى الحفل ببعض الكلمات التى لم يستمع إليها

إلا القليل من الناس . . كنت قد عزمت على أن أتحدث إلى سعد زيدان ، لكنى أحسست أنى غير مستعد لهذا وأنى ساخط جدا مثل الناس ، وإذا تحدثت إليه فسوف أقسو عليه ومهما قسوت فلن أوفيه حقه .

بعد أيام ترقبت الصحف وطالعت ما نشر ، تضمنت وصفًا صادقا وحماسيا لكل ما جرى والتركيز على المسئولين والحوارات معهم . لم تكذب الصحف إلا كذبة واحدة صغيرة جدا هى أنها نشرت أسماء الفائزين دون أن تشير إلى مناصبهم وظهرت صور بعض البهائم وفى أعناقها الشرائط الخضراء للتفوق .



(٨)

دربت أم هلال يديها على أن تقوما بالعمل فى أغلب الأحيان دون أن تنظر إلى الأشياء ، بعد أن لاحظت على مدى شهور طويلة أن نظرها يتراجع تدريجيا، ولمست بنفسها كيف أنها تخطئ وضع يدها على ما تريد . . فقد حدث أن سحبت برطمان الفلفل المطحون لتضع منه ذرات قليلة على البيض المقلى ، إلا أنها اكتشفت عند تناوله مع الشيخ هلال أنها وضعت الكمون ، وهمت بوضع الملح فى براد الشاى لولا أن تنبه هلال فى آخر لحظة . لقد ظهرت الإشارات مبكرة ممثلة فى عجزها عن «الضم» الإبرة وتمييز الألوان واصطدام قدميها ببعض الأوانى الصغيرة التى تكون قد نسيت وضعها فى مواضعها . . لاحظت أيضا أنها لا تعرف إذا كانت مساقى الدجاج بها ماء أم لا . . فتمد أصابعها وتتحسس ما فيها ، لكن سمعها الجيد يعينها على

معرفة الحيوان والناس من حركتها ونقراتها ، وكذلك للشم دور كبير فهى تتعرف به على نضج الطعام وعلى اشتعال النار ونوع الشىء المحروق ، وتميز به الغرفة المغلقة من المفتوحة .

دخلت عليها انشراح وكانت تقوم بتقشير الثوم ووضع فصوصه فى الهون .

- عنك يا حاجة .

- شكرا يا ابنتى . . خلاص خلصت .

مدت انشراح يدها وحاولت سحب الهون وهى تقول :

- لازم أعمل أى حاجة .

تشبثت أم هلال بالهون وقالت :

- إذا كان ولابد تعملى حاجة . . اكنسى وسط الدار ورشى قليلاً من الماء كى يهدأ التراب .

هبت انشراح بحماس وهى تقول :

- من عينية .

مضت إلى موضع المقشة الذى تعرفه ، بلغتها دقات الهون الذى تهرس به أم هلال الثوم مع الكذبرة

والملح والشطة . . كانت الدقات عفية . تمهلت قليلا تنصت للدق، يأكلها قلبها بسبب خشيتها من سقوط يد الهون الثقيلة على يد أم هلال ، ولما ضربت اليد حافة الهون وارتطم الحديد بالحديد عدة مرات ؛ أسرعت إليها انشراح قائلة :

- عنك يا حاجة .

دفعتها أم هلال وهى تقول :

- امشى يا بنت .

انتهت بعد قليل من الدق ، سحبت طبق السمك ، ومضت تفتح بطنه وتحشوه بالثوم المتبل وتدلك بدنه ورأسه .

عندما تعالى صوت المؤذن لصلاة العصر . . أدركت انشراح أن أمامها بالكثير نصف ساعة قبل أن يحضر الشيخ هلال . . جلست إلى جوار أمه تنقى الأرز ، بينما كانت الحاجة تعد طبقا من السلاطة .

- هلال يحب السلطة .

قامت لتتوضأ وتصلى . . وضعت انشراح حلة الأرز على النار ولما انقدح الزيت ، قلبت السمك فى

الدقيق وأسقطت نصفه فى المقلاة وطش الزيت صارخًا .

قالت انشراح :

- الشيخ على وصول ولابد من ذهابى .

- تناولى الغداء معنا .

- ألف شكر . . ألا تريدين منى القيام بأى عمل ؟

- تعيشين يا ابنتى . . أخدمك نهار فرحك .

جلست أم هلال وأمامها الباجور ، يوش ويسوى السمك، يدها تطمئن على تقليب السمك البلطى فى الدقيق وتتابع ببقايا البصر حالة السمك الذى أوشك على النضج .

دخل هلال . . قالت أمه :

- انشراح الله يخليها ذهبت قبل وصولك . .رتبت نفسها أن تأتى فى غيابك وتساعدنى فى شغل البيت . . بنت أصيلة . . ريح قلب أمك يا ضنايا وتزوجها .

جلس هلال وهو يتنهد .

- مقصر أنا يا أمى فى حق المولى وحق العباد

فكيف أتزوج ؟

- أنت مقصر !

- نعم . . يكفى أن أقول لك إن البلد فيها ألف رجل فوق العشرين يحضر منهم فى كل صلاة ما لا يزيد على عشرين ، وأحيانا قد يصلوا إلى ثلاثين وفى الجمعة مائة .

- وما ذنبك ؟

- ذنبى يا أمى ! . . هذا يعنى أنى فاشل ، لابد أن يكون فى المسجد نصفهم على الأقل يوم الجمعة ، وحتى عشرهم فى كل صلاة .

- ربك يقول « ليس عليك هداهم » .

- هذا بعد أن أقوم بواجبى .

- لا يكلف الله نفسا إلا وسعها . . والأمر كله لله .

- أعلم يا ست الكل . . دعينا من الصلاة . . المعاملات . . الخلافات . الخير قليل جدًا . . الصدقات قليلة ، المؤامرات والأطماع وراء معظم التصرفات .

- هذا عمل العمدة .

- المسجد أولاً هو المسئول ثم الإدارة ..
الحكومة أو الشرطة .. العمدة والمحكمة !
.. دور الواعظين هو أول الأدوار .. لابد أن يساعدوا الناس على حياة طيبة وآمنة تتجه نحو الخير .

- أنا مندهشة لما تفعله بنفسك .. لا أحد فى الدنيا يا ولدى يقول كلامك .

- ما أقوله هو الصواب يا أمى .

- ربنا يعينك يا بنى ..

فتحت نفس الباجور ، فأطلق زفيره الذى كان يملأ بطنه . هبطت النار والوشيش حتى انطفأ الضجيج ، خفت الحرارة وعاد البيت إلى سكونه الوثير .

- هيا بنا نأكل .

مع اللقيمات والمضغ والبلع عادت الأم لسيرة انشراح ..

تراجعت أحوال الناس قليلا وتسللت غلالات السعادة لترفرف فى قلب هلال ، عندما تطوحها نسائم الكلمات التى تطلقها عليه أمه .. لطالما حاصرته

الأفكار واستدرجته وأشارت إلى التوافق بين رغبة أمه ورغبته فى الزواج من انشراح .. انشراح بالذات . هو فى حاجة إلى انشراح بمثل حاجة أمه إليها .. وأكثر طبعا ..

- ما أكرمك بى يا ربى وأعظم فضلك على .. هذه الشابة إذا كانت من نصيبى فهى لاشك منحة كبيرة منك يا إلهى .. كل ما فى البيت يطلب انشراح حتى الأشياء والأرض والجدران والمقاعد والأوانى والدجاج ، والبط والكتاكيت الصغيرة والعنزة الطيبة وولديها الصغيرين .

كل هذه المخلوقات تؤنس البيت وتدفع فيه الحركة والحياة ، لكنه لا يزال فى انتظار انشراح لتضع لمسات الأنثى .. لمسات الشباب والجمال والحنان والحب .. لمسات الحياة والبهجة .. لا رهبنة فى الإسلام .

تذكر ملامحها الدقيقة الجميلة الشفافة التى تنضح بالنعومة والرقة .. يستدعى صوتها إلى ذاكرته .. صوتها العذب الذى تهنأ به الروح وتطرب ..

يستحضر صورة بدنها الرشيق النحيل كأنها لا تود أن تمثل عبئا على الدنيا ، ولا ترهق الهواء إذا فكر أن يدفعها فتكفى منه نسمات قليلات لتحملها إلى حيث تريد .

هل من حقه أن يتمادى فيتصور شعرها الذى التقطت عيناه مرة ، ربما مرتين مشهد نهاياته ، فإذا هو بالغ سفوح ظهرها ؟ هل من حقه أن يستحضر رسم عينيها الجميلتين ، لينظر إليهما ويسألهما عن سر قلبه وقلبها ؟ عن مكنون مشاعرها . . علها تبوح بما لم يبح به لسانها .

ربى . . أنا لا حق لى فى شىء لم تقدره لى . . فقدره لى إذا شاءت إرادتك ، واشملنى بلطفك وعطفك . . ليس لى حتى أن أطمع فى شىء ، فسوف تيسر لى بعلمك وكرمك ما أريد ، وما لم أفكر بعد فى أن أريده . . ليس علىّ إلا أن أجتهد فى عبادتك . . فاللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك .

يا حى يا قيوم ، برحمتك أستغيث ، أصلح لى

شأنى كله ولا تكلنى لنفسى طرفة عين .

. . . . . .

قام فصلى ركعتين ثم تلا دعاء الاستخارة :

- «اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم . . فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ، إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاجل أمرى وآجله فقدره ويسره لى ثم بارك لى فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاجل أمرى وآجله فاصرفه عنى ، وقدر لى الخير حيث كان . . أود يا ربى الزواج من انشراح بنت . . بنت . . لا أعرف اسم أمها . . بنت بدوى . أود الزواج من انشراح . . أود الزواج من انشراح » .

اللهم إنى توكلت عليك فى كل أمرى بلا ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ، وأعوذ بك أن أظلم أو أُظلم أو أعتدى أو يُعتدى علىّ أو أكتسب خطيئة أو ذنبا لا تغفره ، اللهم اجعلنى ذكارا لك ، شكارا لك . . رب تقبل توبتى واغسل حوبتى وأجب دعوتى وثبت

حجتى واهد قلبى وسدد لسانى .. اللهم اهد قلبى وسدد لسانى .

تمدد هلال على فراشه وتطلع إلى السقف .. كان عندئذ يرى السماء صافية فسيحة ممتدة بلا نهاية ، ولم يدر ما السر فى أن سحابة ظهرت ملبدة وغائمة مدت يدها إلى قلبه ونزعت شيئا كالخرقة السوداء ، وأحس بنفسه خفيفا هادئا .. عندئذ تسلل إليه شعور بالانشراح والرضا .. وسرعان ما شملته غفوة ناعمة .. تصاعدت خلالها أنفاسه هادئة راضية كأنفاس الأطفال ..

دخلت عليه أمه تحمل بعض ثمار الجوافة التى أحضرها طه .. ولما لم ينهض لقدومها كما تعود ، أدركت أنه راح فى سبات .. فبسطت على جسده ملاءة ، وغادرت الغرفة وهى تستشعر الرضا لأن النوم زاره فجأة ليخلصه من الهم ، وهى لا تكره شيئًا فى الدنيا مثله . وكم كانت تقول ما قالته من قبل أمها :

- عدو الإنسان الهم .. ربنا يكفينا شره .

(٩)

باب الدار مفتوح دائما منذ الصباح الباكر ، مُرحبا بالنهار الوليد الطازج الذى يحمل رائحة ميلاد الكون مخضبة بعطر الزهور . . يمر النهار على الدار وهو فى طريقه إلى بيوت القرية المتلهفة إليه بعد ليل طويل ، يزداد طوله بالصمت والظلام والتحام الأجساد بالأرض بعد أن حطها وأثقلها التعب .

يظل الباب مفتوحا إلى أن يسرع هذا النهار بالذبول ، ويشحب ضياؤه ويكتسى بالرمادية متمهلاً وهو يعتزم الغوص فى بحار العتمة وقد بدا عليه الإنهاك واستسلم وديعا راضيا بقدره ، بينما أيدى المساء مشفقة عليه تجرجره فى اتجاه أفق مجهول . . حريصة على ألا تهدر كرامته التى ذهبت بانحساره ، وما كان لعزيز قوم أن يهان ، ولكنه يوسد خارج المضمار بحنان وإجلال .

باب الدار المفتوح يتصدره فى الظهيرة نهار متألق

أبيض شاهق يكشف للناظرين حتى ذرات الهواء ، وقد فرح بمقدم انشراح فلفها بنوره . أحست أم هلال بمقدمها رغم أنها لا تكاد تلمس الأرض .

البيت لا يطرق بابه زوار إلا فيما ندر ، ومن يود لقاء الشيخ يقصد المسجد فموعده الصلاة ، وهو جاهز للقاء الناس فى اليوم خمس مرات على الأقل فى مكانه المعلوم . .

قالت أم هلال دون أن تنظر إلى انشراح :

- تعالى يا ابنتى . . بيتكِ .

فوجئت انشراح بالشيخ هلال يطلع عليها من إحدى الغرف فى جلباب بسيط ورأس عارية يتوجها شعر أسود فاحم كثيف . . بدا وسيما بدون العمامة التى تخلع عليه وقارا لا ترجوه النساء فى كل وقت . كان حافى القدمين . . لمحت كم جلبابه الممزق ، كما لم تفتها اندفاعته هلال وهو يوشك أن يجرى ثم أحجم ! رحب بها مستقبلا يديها فى يديه .

- كيف حالك ؟

- بخير طول ما أنت بخير .

التقت العيون ، وحاول القلبان المضطربان أن ينظما دقاتهما ، فلم يفلحا .. ارتعدت الأيدى وتكلمت كل الحواس والجوارح والأعضاء إلا الشفاه ، إلى أن تسللت من شرنقته انشراح ، ومضت فجلست إلى جوار أمه .

- كيف حالك يا أمى ؟

- بخير يا ضنايا .

ابتلع ريقه هلال وعاد إلى الغرفة ، يُعلم بقلم رصاص على لوح من الخشب ، ثم سحب المنشار وأخذ ينشر بحماس .. كان يحاول صنع مكتبة من بضعة أرفف ، فالكتب على المنضدة والكرسى والأرض وفى صندوقين ، وعلى جانب من السرير ناحية الحائط وبعضها فى طاقة بالجدار ، فضلا عن الكتب التى يحملها رف فوق الباب .

عيناه ويداه مع الخشب وأذناه فى الخارج .. تلتقط صوت انشراح التى نهضت لتكنس وتنفض الأتربة عن كنبة الصالة ، وتهدم بيوت العنكبوت التى

تدلت من كل ركن ولم ترها أم هلال ، ولم يهتم الشيخ بإزاحة خيوطها .

الذراع القوية تذهب بالمنشار وتجيء ، تشق الخشب بعزم وسرعة ، القلم فوق رفرف أذنه يسحبه ليرسم العلامات ، ثم يضعه حيث كان بآلية تامة ، لكن حواسه تترصَّد حركة انشراح ، وتحاول تصيُّد صوتها أو أنفاسها أو كحتها أو معرفة نوع حركتها حسب العمل الذى تقوم به .

أدرك أخيرا أنها تقف ببابه وكان موليه ظهره ، وهى تنظر إليه ولعلها تفكر فيه ، تتساءل عن سر ولعه بالخشب والنجارة ، وكما قال عم بدوى : لم نسمع أبدا عن شيخ يعمل ويمكن أن ينتسب لأى مهنة أو حرفة . تحول إليها ورحب بها .. وقفا طويلا يتبادلان النظرات ، ثم سألته عن سر العمل فقال :

- العمل موتور الحياة .. لا حياة بدون عمل ولا قيمة لها بدونه .

- يكفى ما تقوم به فى المسجد.

- لا يستهلك كل الوقت .

- المتبقى بعده لجسدك وبيتك وأهلك .
ابتسم وسأل :
- أين هم ؟
- أمى الحاجة .
- هى مثلى بحاجة إلى أهل .
- أخواتك هم أهلك .
- بل أنت أهلى .
غضت بصرها .
- هل تستطيعين أن تكونى هنا وأنت فى بيتكم ؟
- لا أفهم .
- هل يمكن أن تدركى حال هذا البيت بدونك ؟
- لا .
- هذا البيت لا يكون بيتا إلا عندما تدخلينه .
- أمى الحاجة هى الخير والبركة .
- وأنت النور والحركة .
دنا منها وأمسك يدها .
- متى يأتى اليوم الذى تدخلين هنا ولا تخرجين ؟
- . . .

- متى يأتى اليوم الذى تنيرين فيه حياتى ؟

- . . .

أمسك ذقنها ورفعه إليه . . أدرك لأول مرة مدى جمال عينيها ، وملاحة وجهها ، واللذة التى يستشعرها من مجرد النظر إلى شفتيها . . تأمل ذقنها الصغير ، وأنفها الدقيق ، وشعرها المفرط السواد . . تنفس بملء رئتيه الهواء الذى يحيط بها فيصبح عبيرا . . دنا منها وأدناها إليه .

- لابد أن يقترب جدا يوم لا نفترق بعده أبدا .
- كله بأمر الله .
- أصبحت أشعر إذ وفقنى الله إليك وملأ قلبى بحبك ، أنه راضٍ عنى . .
- عمن يرضى إذا لم يرض عنك ؟
- أنت تبالغين .
- والناس ؟
- مثلك ؟ لا . . لا أحد مثلك .
- أنت تبالغ .

– شىء غريب يشدنى إليك .. شىء أكثر من جمالك .

ابتسمت وأحنت رأسها وتداخلت ، رقص قلبها فى صدرها على نغم الكلمات اللذيذة المحلقة .. شعرت فى هذه اللحظة أن هلالاً حملها فى محفة من القطيفة ومضى يهزها هزا وئيدا وحنونا .. وكلما هزها ابتعدت عن الأرض والناس .. لم تعد تشعر بشىء .. ربما كانت على وشك السقوط .. أدناها منه أكثر وضمها إليه .. أراحت رأسها على صدره . دق قلبه بشدة ورد عليه قلبها .. استنشق هلال من العبير .. استنشق من الحب والسعادة .. أحس أنه لأول مرة يكتشف أنه شاب يمتلئ حيوية ويحتشد بالأمل ، ويقبل على الحياة ، وأن لديه الاستعداد لأن ينسى كل شىء وأن يفتح قلبه للناس ولأخطائهم .. بل لديه الاستعداد لأن يقبل العمدة نفسه ويتحمل وجوده الثقيل الكريه .

حط على الغرفة صمت مفاجئ بعد الدق والنشر وحركة نقل القطع الخشبية .. صمت له وبر ناعس

وهامس ، تفوح من بين ثناياه رائحة الدفء والونس .

تنبهت الجدران للحالة الجديدة التى أصبحت عليها غرفة قديمة . . أحست العروق الخشبية الكبيرة التى تحمل السقف بأنها منذ احتلت هذا الموضع قبل ستين عاما على الأقل لم تر ما تراه ، ولم تشعر بما تشعر به الآن . .

روح غريبة تشمل المكان . . الجميع ينصتون لهمس الأنفاس . . يتأملون الجسدين المتعانقين المتعبِّدين فى محراب الحب ، المتحدين بقوة فى انتظار مرحلة الذوبان . . الكل يترقب . . السرير البسيط والكتب ومن يسكنون صفحاتها والمقعدين والمصباح . . الجدران المتهرئة ، والأرض المبلطة بالإسمنت ، حتى الحذاء القابع فى ظلمته تحت السرير يتطلع إلى نشارة الخشب كعادته ، أدرك أن الصمت هذه المرة غير كل ما عاشه من صمت فى هذه الحجرة .

الحوار الذى لا يتوقف بين القلة والغطاء النحاسى

اللامع الذى يستقر فوق فوهتها ، وضاقت به الصينية الألومنيوم . . رغم أن القلة لا تبخل بالماء على الصينية ، لكنها فى الحقيقة تغار لأن القلة تضع فمها طيلة النهار فى فم الغطاء ليتبادلا القبل والأحاديث ، وبينهما ماء الورد لا يكف عن نقل الرسائل المعطرة .

اتسعت الغرفة وشرعت فى الحركة . . بدأت تدور فى نعومة بعد أن انفصلت عن الأرض . . تدور وتدور حول الحبيبين اللذين غابا تماما عن الوعى وعن العالم ، ومؤكد أنهما غابا عن نفسيهما . . مضيا إلى حيث تسكن الملائكة .

انفصلت الغرفة عن الأرض وانفصلا . . بدا هذا الكيان الصغير يعلو ويعلو . . بعيدا عن قبضات البشر وأنياب الطين . . متوجها نحو مجرة الوعد الملهم لكل من فَنى فى الحب ، والوجد الممتد بعرض ملكوت الرب .

ها هما معا . . متعانقان . . وقد توقفت تقريبا كل الأجهزة عن العمل إلا من يشارك فى عملية وضع القلب على القلب . . ظلا هكذا طويلا . . طويلا . .

مرت دقائق وهو يمسد شعرها الناعم بعد أن سقط منديلها السماوى الشفيف .

كانت الطبيعة العاشقة تنصت إلى الحوار الدائر بين جسديهما فى صمت ودعة وحنان .. أنفاس واهنة تمضى بينهما لترفرف على القلبين المحمومين .

ظلت انشراح على صدره ، ولابد أنها تمنت أن تبقى هكذا إلى الأبد .. تمنت ألا تبارح هذا الصدر الذى لم تلمس غيره ، ولا مثله .. استمرت تلك الراحة التى لم تعرفها منذ وعت الحياة .. هل يمكن أن يكون نصيبها هذا الصدر الطيب الحنون ، القادر على حمايتها من العواصف ؟

تخدر جسمها ، وشعرت بلذة الراحة والثقة ، ولذة الحب الصادق والأمل الجميل الواعد .. بحيرة من الجمال تسبح فيها بمباهجها ، وتستقطر حلاوة اللحظات الربانية الرائعة .لحظات الحب الذى لا يكاد يعرف عنه الناس شيئا ، فيما تعلم .

لقد اختار الله لها هذا الرجل بالذات لتكمل معه عمرها ، بل لتبدأ معه عمرها ، وليس أفضل منه ..

حيث لا تسأل ولا تحمل همًا ولا تخشى خطرا ولا تهددها المخاوف والهواجس ، وتنعم بما لم تنعم به من قبل ، وتساءلت : هل الناس الذين تلتقى بهم . . يعرفون شيئا اسمه الحب ؟ . . هل تراهم يحسون بما أحس به الآن ؟ مستحيل أن تكون لديهم أدنى فكرة ، لأنهم لو كانوا يعلمون أو يحسون بعُشر ما أحس به لتحولوا إلى ملائكة . . إلى نسمات . . إلى عطور وعصافير وشجر وأنهار وحمام وورود وكائنات شفافة . . خفيفة ولطيفة .

العالم المسحور ، يلف بها ويدور . . ينقلها من حالة إلى حالة . . من جمال إلى جمال . . يجتاز بها سراديب العشاق المنعمين بالأحلام تحت ظلال السعادة اللانهائية ، ثم يطلع بها إلى بساتين الحب حيث الكل باسم ومشرق وناعم الكلمات ، والوجود كله يحنو عليه ويخدمه ، مقربا له البعيد ، ميسرًا كل عسير .

لكنها فى هذه اللحظات وهذه الأحوال العجيبة والرحلة الغريبة . . أحست أن ثمة شىء بأسفل يتحرك

قادما من عند الشيخ ليطول بطنها ويخبطها بحنان . . كان لطيفا وهادئا ولدنا فى البداية ، ثم شرع يشتد ويحتد ويزداد قوة واندفاعا . . وبدا خبطه قويا وبدت حركته غامضة . . كالضال الذى يبحث عن منفذ أو موضع يأوى إليه .

عندئذ فقط تسلَّل الوعى إليها وتدريجيًا بدأت تتنبه من غفوتها . . وأحست فجأة بالخطر ، إذ أن هذا الشىء يمكن أن يقتحمها وهى على فراش هذا العالم الوثير .

نفرت وارتعدت وقفزت فى اتجاه الردهة المضيئة ، ثم تسمرت فجأة وقد اكتشفت أنها عارية الرأس . . عادت إلى حيث كانت ، وبحثت بعين زائغة وقلب مضطرب وأعصاب مفتتة عن منديلها السماوى . . وجدته مطروحًا على الأرض . . اختطفت نظرة إلى الشيخ هلال ، فألفته واقفا كما كان . . يضع رأسه فى كفه ، وما زال عضوه منتشرًا ، حاملا الجلباب معلنا عن شهوته الملتاعة ، وبدنه الهائج الراغب فيها بوَلَهٍ جنونى .

ازدادت هلعا عندما وقعت نظرتها على الجلباب المحمول . . أحست فى الوقت نفسه بدبيب شهوتها يتراجع فى هدوء ، بعد أن كان قد تزايد دون أن تتبين ذلك فى البداية .

أغمضت عينيها وهزت رأسها رافضة كل ما جرى ، انشغلت فى ضبط هندامها وعقد منديلها ، خرجت إلى الردهة وهى تقول لأم هلال

- طالعة السطح يا أمى .

- طيب يا بنتى . . ربنا يسعدك .

كان قلبها لا يزال يضرب صدرها بقوة ، ولم تكن قادرة على التقاط أنفاسها ، فوق السطح جلست على صومعة من الطين ، أخذت تلهث كأنها ركضت عدة كيلو مترات بلا توقف . تسترجع الصورة مرة ومرة ، بسرعة وببطء ، تتوقف عند مراحل منها وتقترب من عمقها بعدسات قلبها وإحساسها وهواجسها . . تغوص فيها وتسأل وتستفسر وتستنتج ، اختتمت أسئلتها عن نية هلال . .

- هل يمكن أن يكون قد عزم على أن . . ؟

- مستحيل .
- لماذا إذن بدا فى هذه الحالة ؟
- ألم أكن أنا فى حالة مشابهة ؟
- من السبب ؟
- هو .
- أنا .
- هو .
- نحن .

أخيرًا أصبح بإمكانها أن تصبح إنسانة طبيعية ، لكنها ليست كما كانت عند دخولها الدار مع وضح النهار .. أصبحت إنسانة أخرى يعمر قلبها الحب الكبير ، ويبدو جليا فى عينيها ، بل يكاد يبدو فى جسدها الذى كان يرقص بكل جوارحه ، ويحاول أن يمسك طرف الأغنية التى يمكن أن يرددها مع الطبيعة .. تلك الأغنية التى تجيد الطبيعة عزف ألحانها تعبيرًا عن فرحة الوجود بالحب والأمل .

ملأت رئتيها بالأنسام العابرة ، وغنت للحمام والأوز ، ودللت الكتاكيت الصغيرة التى كانت تجرى

فى أضواء صفراء لشمس غاربة ، فرحانة بطفولتها والمياه الجديدة التى تسكبها انشراح فى مساقيها ، ومعها بعض من حلاوة شعورها ورضا قلبها المستهام .

سأل هلال نفسه : هل أنا ذئب أم حمل ؟ .. لابد أن يسأل المرء نفسه . أنا لست ذئبًا ولا أنا الحمل ، أنا البشر .. أنا جزء من الطبيعة ولن أكون نبيًّا ولن يكون غيرى .. ماذا حدث وكيف حدث ؟ .. وماذا عن المستقبل ..؟ يجب ألا ألقاها فى البيت مرة أخرى .. هذا عيب وحرام وخطيئة ؟ .. سامحنى يا رب . واعف عنى يا غفور .. هاأنذا أقبض على لسانى متلبسًا بطلب المغفرة كثيرا هذه الأيام ، وأطلب العفو عن الذنوب التى تكاثرت منذ بدأت معرفتى بانشراح .. فهل طريقها هو الزلل ؟ وهل الاقتراب منها يعنى الابتعاد عن الله وعن طريق الهداية ؟ .. لا ..لن أسمح لشىء مهما كان أن يردنى عن سبيل الله أو ينقص من حماستى وانصرافى إلى نور الله .

قام الشيخ هلال يصلى ركعات تلو ركعات محاولاً تأكيد الوحدانية والعبودية ، وتحسين الدرجات وترسيخ القرب وطلب الرضا .. تحول إلى القرآن .. سار طويلاً فى ظلاله وعب من كوثره ثم عاد يصلى إلى أن أوشك الفجر أن يتنفس .. مضى إلى المسجد فأذن للصلاة ، ووفد العابدون الذين رأوا أن الصلاة خير من النوم ، وسحرها يفوق لذة الفراش الدافئ .. خرج هلال إلى الحقول وشهد ميلاد الوجود وتفتح زهور الصباح وتحمم بالندى .. نادته المخلوقات الطاهرة .. ناداها .. كل صباح يشرق يوم جديد ويقول :

- يا ابن آدم .. أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد ، فاغتنمنى ، فإنى لن أعود إلى اليوم الموعود .

نهل الشيخ من النسيم الطازج وهمس.

- أيتها الطبيعة .. أنا واحد من عشاقك المدلهين بحبك ، المولعين بالنظر إليك .. المشوقين دوما لعناقك .. المتأملين لعبقرية حركتك وعطائك .

ضمينى إليك أيتها الطبيعة .. خذينى بين

أحضانك . . احفظينى سرا بين أسرارك . . ذرة من ذرات وجودك البديع .

ألحان السماء تترى والكون غافل ، لغة مبينة وناطقة بكل يسر وفصاحة عن عبقرية الرؤية الإلهية لمنظومة الحياة التى يعقدها الإنسان بأحقاده وأطماعه .

اقتربى أيتها الطبيعة . . اقتربى أكثر . . ضمى الإنسان إليك من مهاويه . . ضميه إليك وضمينى . . ضمينا . . نحن فى حاجة إلى لغتك وبيانك . إننى أرى عيونك الأسيانة المشفقة علينا فى كل موقف وكل حركة . . أحس بقلقك وتوجسك من جنون البشر ، مع كل نسمة وكل سحابة تمر وتتشكل فوق رأسى ، وتلوح بيديها وعينيها وتشير نحو الحافة والهاوية . .

اقتربى أيتها الطبيعة منى وقودينى إلى سر أسرارك الذى يغمض على ويفر من عقلى المحدود ، وأملى أن تجيبى على هذا السؤال .

أليست المرأة جزءا منك ، أليست غصنا فى شجرتك ، بل شجرة فى غابتك ؟ أليست المرأة هى

صورتك البشرية ؟ . . وعندما تأنسنت اتخذت صورة المرأة .

لعل ذلك ما يجعلنا نرى المرأة كائنا رقيقا عذبا ، هامسا ولذيذا ، لكنه بحر وحشى لا قيعان له ولا ضفاف .

المرأة كائن غريب كالرمال المتحركة ، تبتسم فتبتلع الجبال ، وتحن فتذيب الصخر . . وتعشق فيضىء الكون ، تغضب فيعم الظلام ، وتخرج كل الوحوش من أحراشها وأوكارها .

كائن عجيب ، هل نملك ألا نقترب منه ، هل نستطيع الابتعاد عنه ؟ هل نقدر على الوعى بوجودنا فى حضرته ، هل بإمكاننا فهم لغته ، وأن نسبر بالضبط أعماق معانيه ومراميه ؟

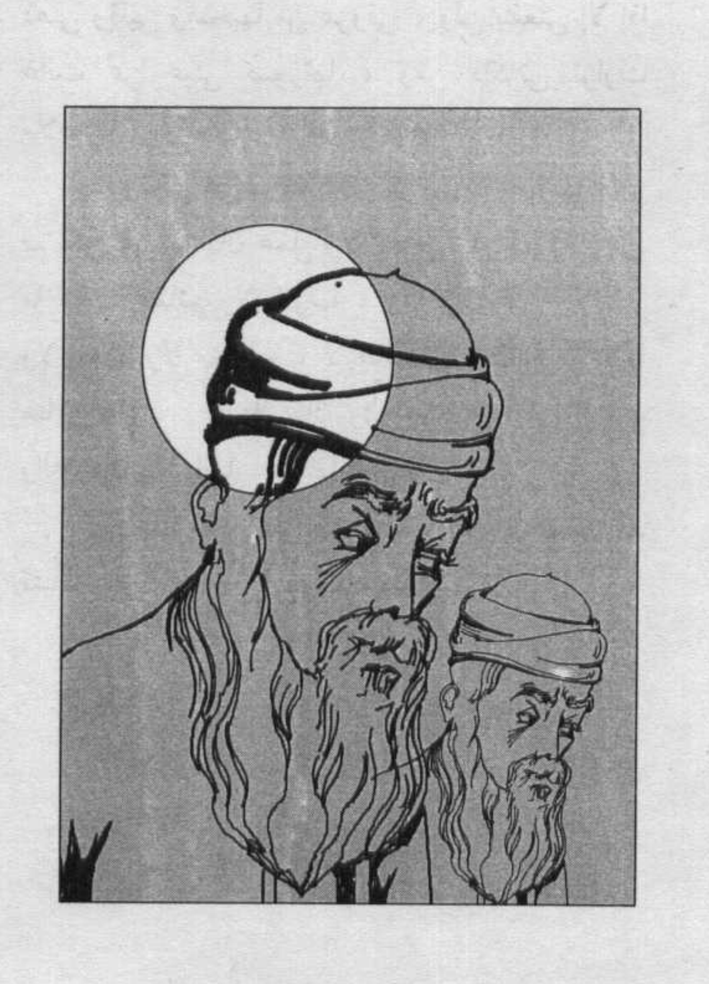
كيف أهرب . . كيف أنسى . . كيف أخلو منها ؟ . . أخرج منها وتخرج منى ، كيف أخلص الروح من أغلالها؟ . . ما السر فى أنها تتمتع من دون الخلق بكل هذه القدرات البدنية والروحية ؟

أنا فى أمس الحاجة إلى نسيانها ومحو كيانها من

ذهنى وقلبى وسحبها من عروقى . ولن ينفعنى إلا إذا غابت عن عينى صورتها ، ومن ذاكرتى توارت ملامحها . وتبخر من الطرق عبقها الأثير .

لو لم تكن هى ، ما كان عمران ولا حروب ، لو لم تكن هى ما كان عمل ولا كفاح ، لو لم تكن هى ما كانت عظائم ولا ذنوب ، وما كان غنى ولا فقير ولا حاكم ولا محكوم ، لا ظالم ولا مظلوم . . إنها هنا وهناك . . فى المكان واللامكان . . فى الزمان واللازمان . . إنها . . إنها الحياة .

ربى أعنى . . أعنى كى أعيش الحياة مادمت قد كتبتها علىّ . . جلّت قدرتك وتعاليت . .



(١٠)

يقبل عدد كبير من البلد على حديث الأربعاء الذى يلقيه الشيخ هلال كل أسبوع ، وكان الليلة بعنوان «لماذا نحمل همًا ولماذا الحزن والغم؟» . . كانت فكرة ذكية والموضوع إنسانى مهم ، فقد لاحظ الشيخ أن الناس فى الأغلب يستسهلون الحزن ويستمرئون التعاسة ويرحبون بالهم ويسهرون معه الليل . . يكمل معهم الأحلام ويشاركهم فى وجبات الطعام . . بسط القضية فقال : إن كل شىء إما حدث أو يحدث أو سوف يحدث . . فما فات لا ندم عليه ، يقول الله : « لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » ، وأما الحاضر فلا تقلق بشأنه وبدلا من ذلك ابذل كل ما تستطيع بإخلاص وهمة وأمانة ، ولتكن النتيجة ما تكون ، وتأكد أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، أما عن المستقبل فهو الغيب ملك الله ، الله هو الرازق . . وكل شىء مكتوب فلم القلق . كان الحديث

طويلا والأسئلة كثيرة وخرج الناس سعداء بما قيل ودعوا للشيخ بالفلاح وطول العمر . .

خرج الشيخ من المسجد بعد الجميع . . مشى وحيدًا راضيا . . شغله المساء الجميل عما كان ينوى أن يفكر فيه . . لا غيم هناك ولا ريح . . الأرض مفروشة بنور القمر الفضى والأفق الرمادى واعد ومبتسم برغم همس الضباب المنهمر . . الخالق المبدع ينقش السماء باليواقيت . . تتوزع على الآفاق آياته . . لوحات من الجمال الوديع ، الكل يعزف لحنا مؤتنسا بالضوء الحميم برغم نقيق الضفادع . . استسلم الشيخ للبهاء الإلهى الفاتن . التقى أخاه طه وتبادلا الحديث الذى تضمن خبرا مؤداه أن انشراح تعمل لدى العمدة . ضاق صدره وغضب غضبًا شديدًا . . أحس أن قضيبا حديديا مدببا اخترق قلبه ، كان يسيرا عليه أن يرد الأمر إلى حب الانتقام ، فالعمدة لم ينس له حكاية عرفات وأرضه . . كيف علم العمدة بما بيننا ؟ المرة الوحيدة التى يمكن أن يلحظها أحد كانت مرورا عابرا بالغيط . . هل أكون

مبالغا إذ أربط بين هذه وتلك . .

تقلب طويلا على الجمر قلبه ، وتساءل لماذا انشراح بالذات ؟

. . مضى إلى بيومى يبثه همه ، وكان قد أنبأه من قبل بشعوره تجاه انشراح ، فوجئ بصديقه يقول له :

- البلد كلها تعرف ذلك .
- ماذا تعرف البلد ؟
- تعرف أنك تحب انشراح وأنكما تلتقيان وتتبادلان الغرام .

هاجت أعصابه وأحس بالاختناق .

- مستحيل . . لم أرسل لها رسولاً . . ولم أتحدث إليها فى الطرقات ، لم أكتب خطابا ولم . .ولم . . فكيف تكوّن هذا الظن لدى الناس ؟

ترك بيومى ومضى فى الليل وحيدًا . . أيد كثيرة ، وثقيلة ، تمسك بخناقه . . لا يجب أن يكون فى ذلك الوضع ، كيف يصعد المنبر ، والمصلون ينظرون إليه بارتياب ويستمعون إليه بنصف إنصات ، بل ربما

لا يستمعون ؟ الحب فى نظر العامة قلة أدب وفجور . . وإذا جاز تقبل ذلك من الكل ، فلن يقبل من الواعظ المرشد . . رجل الدين . . القدوة . . المصلح . . الشريف العفيف . . يا رب .

يا رب أعنى . . أكاد لا أرى طريقى . . كابوس ثقيل يجر وراءه كوابيس . . من غيرك يعلم ما فى الصدور ، كلها صناديق مغلقة ولا تكشف العيون عن شىء . . ماذا فيك يا صناديق القرية من الأسرار والظنون والشكوك ، الكثير منهم يتمنى الفضيحة للآخرين حتى يرتفع قدره .

- هلال متهم . فاسق . . هلال فاجر ومجرم وداعر . . هلال خطّاء . هلال آثم فى ثوب واعظ . . ثعبان فى ثوب حمامة . . ذئب بداخل فروة حمل . . اضربوه . . اطردوه . . ارجموه . . اجلدوه . . اسحلوه . . اقتلوه . . أخرجوه . . ودّعوه بالأحجار . . بالسخط . . الخطيب فاعل الرذيلة لا وجود له بيننا . . نحن أشراف وبناتنا أطهار . . أخرجوه . ارجموه .

تهاوى هلال على مصطبة عبد الغفور سرحان ، وبعد لحظات استعاد توازنه وظل جالسا .. الليل البهيم يحيط بكل شيء .. يحاصره شعوره بأنه سقط في قاع العالم .. في بئر سحيق ينتظر من يرسل إليه حبلا .. يوسف أيها الصديق بحق من أرسل السيارة إليك ، ساعدني كي أجد من ينقذني من وهدة الضياع وسوء المآل ، ووضاعة النفوس الأمارة بالسوء .. أنقذني يا رب .. إن لم يكن بك غضب علىّ ، فمد لي يدك الرحيمة . اللهم أنت ربي ، لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت وأبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبي ، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .



(١١)

تأثرت أم هلال غاية التأثر ، وغلبها الغضب .. تركت دار بدوى وهى فى دهشة من أمر هذا الرجل الغشيم كما سمته .. وقليل الذوق كما وصفته ..

– من الذى يرفض زواج هلال من ابنته .. الرجل أعمى البصيرة يرفض ابنى .. زين الشباب .. هلال .. الشمس المنيرة ، يقول زعيط : امنحينى فرصة للتفكير .. أى فرصة أيها الأبله . أنت لو قضيت عمرك كله فى محاولة للتفكير فلن تستطيع أن تفكر فى شىء .. هل ولدى يستحق أن يفكرالناس فيه إذا كان يصلح أم لا ؟ يدور الرجل حول نفسه ثم يقول .. ابن عمها سبق وطلب يدها .. عديم النظر .. ابن عمها مؤكد مثلك .. هل أقسم ألا أدخل داره أبدا طيلة حياتى ؟ .. لن أقسم ..

خسارة فيه القسم .

مضت تخبط بعصاها الأرض والجدران .. تتحسس طريقها فى الظلام بصعوبة شديدة حتى وصلت دارها التى لا تفصلها عن دار بدوى إلا أربعة بيوت ..

ظلت ترغى وتزبد ، وتضرب كفًا بكف حتى عاد هلال بعد صلاة العشاء ، وأخبرته بما تفوه به الرجل الغشيم ، وما إن انتهت حتى قال لها هلال دون انتظار أو تفكير :

- لديه حق .. لابد من التفكير والسؤال .. المسألة ليست شراء علبة كبريت أو كيلو طماطم .. الناس تتشاور حتى لو فى عمل مصطبة .. وَسِّعى صدرك قليلا ولا تحملى هما .. ولا تقل لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ..

قالت الأم فى وداعة : ونعم بالله .. الله يفتح عليك يا ولدى .. بردت نارى .

لم تدرك أم هلال أن بدوى منذ أبلغته طلبها ،

وهو غارق فى حيرة شديدة ، وعجز عن المواجهة والتصريح ، انتقل معها إلى عالم آخر لا يكف فيه عن الدوران حول نفسه فى جميع الجهات وبمختلف الأحوال .

ظل بدوى أياما يتعثر فى حيرته ويتخبط فى قلقه ، ولا يكاد يلتقط من النوم إلا دقائق ومن الطعام إلا لقيمات : لو كان المتقدم لخطبة انشراح أى شخص آخر حتى لو العمدة لاستطاع أن ينتهى إلى رأى وأن يعلنه دون خوف .

- أما أن يكون المتقدم لخطبتها الشيخ هــلال . .

ذلك الشخص الذى يسمو فوق كل رجال القرية ، نموذج للشاب المحترم . . الرجل الذى يقدره الجميع بما فيهم النساء والأطفال ، ويحبونه ويرحبون بالجلوس إليه ويفرحون برؤيته . . الرجل الذى يخشاه العمدة ويعمل له ألف حساب بعد أن كان حصانا جامحا يفعل بالبلد ما يشاء ، وتؤيده فرقة المنتفعين بالإضافة إلى

حاشيته التى يعد منها الشيخ فتح الباب نفسه .
أما الآن فقارب العمدة أن يكون شخصا عاديا ، يتمتع ببعض المال ، لكن ظهور قوة جديدة فى القرية هددت حصانته ومكانته لأن باستطاعتها أن تقول له : - لماذا يا عمدة ، ولحساب من . ومن أعطاك الحق فى أن تفعل كذا وكذا ؟

لذلك فالعمدة يسير فى الشوارع أو يجلس فى الدوّار كأنه فوق بركان ، أكبر أمانيه الآن حتى لو يفقد عينه السليمة أن يختفى الشيخ هلال ، وهو بالتأكيد مستعد لأن يفقد نصف ماله ثمنا لنزول الشيخ هلال من فوق المنبر . . ويأمل فى يوم يأتى فإذا هلال غائب عن البلد إلى الأبد ، أو على الأقل طول حياته ، ويسعده أكثر لو غادر الشيخ هلال الدنيا كلها ، ويفضل طبعا لو لم يطالع وجهه أو يسمع به فى الآخرة .

- ربما يكون صحيحا ما يقوله الخفير عبد ربه من أن العمدة طلب من بهجت المحامى زوج ابنته أن يبحث عن وسيلة لنقل الشيخ ، وأن

المحامى الذى يهمه إرضاء العمدة بكل وسيلة ويجد لذة فى التهام عقله ، سعى بالفعل وبشره بقرب نقله ، وأن مدير مكتب وزير الأوقاف وعده بذلك ، خاصة بعد أن خلع عليه صفات سافلة . فهذا شاب يمد يده أحيانا إلى صدور البنات ، والأهالى يشتكون لطوب الأرض ، لكنهم لا يودون أن يوقعوا على الشكاوى ، وأنه أحيانا يستخدم ألفاظا بذيئة فى تقريع الناس الذين يتأخرون عن مواعيد الصلاة ، وأنه .. وأنه ..

كانت الأيام التى أخذت تمر ببطء شديد فى انتظار رد بدوى ذات طعم آخر ، يختلف كثيرًا عن كل الأيام السابقة .. أيام ثقيلة ومرهقة وغامضة .. كرة ملتهبة .. تنطلق فى فضاء غريب الملامح والأبعاد ، مجهول الدروب .

هلال يستعين بالصبر والصلاة ليتحمل ويواصل التفكير فى النفس البشرية ، ويدهش لأنها ليست قلة تلك التى تكره الحق ؛ وصحح لنفسه تجاوز أفكاره ،

ومال إلى الاعتقاد بأنها تكره الحق إذا كان سيلحق الأضرار بها ويقلل من مكاسبها ، فى هذه الحالة يصبح الحق باطلا وعدوانا ، ويجب أن يحارب بكل الوسائل وأغلبها سرى بسبب العجز أو لكى لا تتكشف الأوراق والأغراض .

بدا له العمدة ذلك العملاق الأحول ، جهير الصوت . . كريه الملامح فى صورة أكثر سوءًا مما هو عليه بوصفه زعيم الأشرار . . مدبر المؤامرات ، أس الفساد . . صاحب أكبر المصالح ، مشعل الحرائق . . الذى يقف بقوة ضد كل أعمال الخير ولا يسعده محبة الناس وتعاونهم ودوام الوفاق بينهم . .

- كم شخصًا يا ترى على مثال العمدة أو من فريقه ؟ . . طبقات كثيفة تخفى النفوس من الأطماع والأحقاد ، المشاعر الحقيقية مستترة خلف الأقنعة . .
- أية أقنعة ؟
- أقنعة النفاق . . أقنعة الخجل . . أقنعة المصالح ، أقنعة المظاهر ، أقنعة الحسابات

. . أقنعة المجاملة ، وقد تكون أقنعة التقوى .

- آه . . متى يستطيع العلم أن يكتشف أهم اختراع فى العالم ؟ جهاز يكشف بالضبط كل ما يدور فى النفس الإنسانية .
- العلماء مشغولون بالفضاء والمجرات وأسلحة الحرب بكل أنواعها بينما النفوس لازالت تلعب بالبشر وتعبث فى مصائرهم كما تشاء . . تحقد وتدبر خطط الانتقام وتحسد وترتب مؤامرات الشر والعدوان . . يضيق الحال بالنفوس الكريمة وتحاصر فى دروب ميتة وسراديب مختنقة يتولى أمرها الهم والكمد إلا من رحم ربى .
- قد كان بالإمكان أن يلهم الله العلماء النجاح فى الوصول إلى هذا الاكتشاف ، لكنه أبدا لن يسمح به ، ليظل كل شىء متاحًا ومسموحًا ، لتبقى الحريات والأطماع والآمال والأفكار والأوهام حتى الشرير منها ملكا لأصحابها . . سبحانك يا رب

.. لذلك ولغير ذلك كانت عظمتك وقدرتك .

- النفس الإنسانية .. ذات صغيرة فى كل كائن تدبره وتحركه فى الاتجاهات التى هيئت لها وخلق لها البدن .. ليس بوسع إنسان مهما كانت أطماعه وأحقاده أو حتى خيريته أن يفعل شيئا لم تكن بذوره مغروسة فيها ومفطورة عليها .. «وفى أنفسكم أفلا تبصرون».

- أبقى الله تلك الجوهرة سرا من أسرار الحياة تعمل بحرية وغموض لكى يتدافع الناس ويتنافسوا ويعيدوا بناء الدنيا وإعمارها ، ويجتهدوا فى تجديدها مرات ومرات ..

- وفى الوقت نفسه فإنه بدلا من اختراع الجهاز الذى كنت آمل وجوده فإن الصدق إذا ساد وأصبح صنوا لكل كلمة وكل فعل ، فلن نحتاج لهذا الجهاز .. الصدق والأمانة والحب والتعاون والرضا .. آه .. يارب .

- متى يحين ردك يا بدوى لأرتاح .. أنت

لا تحس بحالتى يا بدوى . . وضعى فى البلد كخطيب للمسجد يقيدنى ويمنعنى من أن أسأل أو أبعث بمن يسأل .

وضعى يمنعنى حتى من إظهار شعورى والتعبير عن رأيى . . . لابد أن أكون بالفعل كما ينظر إلى الناس ويتصورون . . خاليا من العيوب . . خاليا من النزوات ، بل خاليا من المشاعر والآمال . . لا أحلام لى إلا المسجد والقرآن . . لكننى بشر ، مثلهم ، أقل منهم . . أنا فقط أحاول أن أوجه المصباح إلى الطريق الصحيح . . كثيرا ما أستتر مثلهم وراء الأقنعة ولو واجهت نفسى بحق ، فربما تبين أن أقنعتى أكثر من أقنعتهم . . ويظل السؤال . . لماذا أنا بالذات لا أستطيع أن أمارس حياتى مثلهم ، ليس من حقى أن أتاجر أو أحصل على المال ولا أن أسعى إليه . . وليس من حقى أن أرتدى الملابس الأنيقة . ليس من حقى أن أغنى أو أرقص أو . . أو أحب من

أود الزواج بها . . كيف ترسخ هذا العرف ، وتأكدت هذه الصورة على مر الأيام ؟ كيف لى أن أستغنى عن بعض الأغنيات والموسيقى الجميلة ، والإنشاد النبيل ؟ كيف لى أن أحرم من الحب والنجوى الطيبة التى تدغدغ الروح وتعمق الإحساس بروعة الحياة ، واستقرار الغرائز وتوازن الذات فى منظومة إنسانية متكاملة ومرضية ؟

- لن يكون رجل الدين موفقا إلا اذا كان ممتلئا روحيا بالعلم والحياة . . ناهلا من مشاربها ذائقا مطاعمها . . ناعما ببعض لذائذها .

- ما أجمل أن أسير مع انشراح جنبا إلى جنب فى الحقول ، ونجلس تحت الشجر نتجاذب أطراف الحديث . . تنعش النجوى أرواحنا . . وترطب النظرات المستهامة نفوسًا تعودت الجفاف والصمت والكتمان . . طيرها حبيس . . وطيرى . . وقد آن أن نعانق الحياة وتعانقنا . .

- للأسف فكل خطوة بحساب ، وكل كلمة وكل نظرة بحساب دقيق .. يجب أن تسبقها دراسات وتخمينات لكل مستويات التلقى والاستقبال آخذا فى الحسبان سوء الظن قبل حسنه ، مسلما بأن النفوس الضعيفة كثيرة وكذلك المعقدة والمريضة وكذلك المتربصة .

- مهمة صعبة .. لكن ما أروع أن تجد نفسك وعملك فى طريق الله .

- مهمتك أن تضىء القلوب بعون الله لرؤية الله والله هو الحق ، وكل ما هو حق سعىٌ نحو الله وقربٌ منه .

- فى أحيان كثيرة لا يخالجنى الشك فى وجود الله ، ولكنى أميل إلى أن أتصوره رمزًا لكل ما هو حق وخير وجمال ، رمزًا للإتقان والأمانة .. .. رمزًا للعفو والسماحة .

إنه النموذج الأعلى للصفات الطيبة ، وكلما أحسن الإنسان العمل فإنما يحسن عبادة الله .. وإذا أخلص فى محبة الناس فإنما يخلص فى

محبة الله . . وإذا بالغ فى الأمانة وحرص عليها قصرت المسافة بينه وبين الله . . فالله - ويضرب الله الأمثال للناس - كأنه مجرة مركزية بعيدة ، قادرة على أن تجذب إليها كل الشرفاء والمخلصين . . لذة كبرى إذن أن نضع الله نصب أعيننا بوصفه الرمز الأكبر لكل ما هو عظيم . . تتضاءل كل الدنيا أمام عظمتك يا رب . . وتتدنى كل الأشياء والمخلوقات إلاك . . ويرخص كل غال إلا ما يوجه قلوبنا وعقولنا نحوك ، فتقبلنى يا رب لديك وساعدنى على أن أدنو منك . . تجاوز عن أخطائى التى أسقط فيها بينما أكون مستغرقا فى التفكير فيك ، بغير الطريق التى اعتاد الناس أن يفكروا فيك بها ، وأنا على ثقة أن يقينى بك يقينى .

انشراح يا رب . . ليتك ترضى عنها وعنى . . وتجعلها من نصيبى وإذا لم يكن ذلك من مشيئتك فلا كان لى أبدًا . . رضاك أملى ونور عيونى .

- ماذا دهاك يا بدوى ؟

(١٢)

أخيرا وبعد كفاح مرير وأخذ ورد ، عزم بدوى على أن يتحدث إلى الشيخ بعد صلاة المغرب .

أخبره أن الوقت الذى طلبه كمهلة لم يكن للتفكير فى شخص الشيخ فهو ليس محل مناقشة ولا بحاجة إلى تقييم لا سمح الله ، فأى أسرة ترحب به وهى مغمضة العيون ، ويشرفها أن يكون لها صهرا ، المشكلة أن انشراح ليست ابنته وإنما ابنة أخيه محسوب .

سأل الشيخ عن والديها . . ابتلع بدوى ريقه وشرع يمسح عرقه ثم قال :

- أبوها مات .

- وأمها ؟

زاغت عينا بدوى وتلفت حواليه ليطمئن لعدم وجود غيرهما بالمسجد .

- تعيش فى بنها .

- فى أى مكان بينها ؟

عادت عينا بدوى الزائغتان تقلبان جدران المسجد . وهو يدرك جيدًا أن الله يرى ويسمع ، وخشى على نفسه وعلى بيته من الحديث فى هذا المكان ، فاندفع قائلا وهو ينهض .

- قم بنا . . سنكمل فى السكة .

قام هلال وتبع بدوى الذى استشعر مع نسائم الهواء الطرية بعضا من الهدوء ، ورضى عن نفسه لأنه اقترح الخروج ، حتى تتاح له الفرصة لترتيب أفكاره التى لم يسبق له أن حاول ترتيبها ، أو لعله قد حاول لكنها استعصت . . شكر بدوى الله أن ألهمه فكرة المغادرة ، حتى إذا أراد أن يكذب وهو لابد سيضطر لذلك ، فليكذب براحته فى الطريق ، أما أن يكذب فى بيت الرب فالمصيبة ثقيلة ، ثقل يوم الحساب . .

- أين تعيش أم انشراح ؟

- وراء مسجد الضُعَيِّف .

اجتهد بدوى ألاَّ يكذب إلا قليلا . . فذكر أنها

تعيش وراء مسجد الضُعيف ، وقد كان هناك بيتها فعلا أيام تزوجت من محسوب ، وبعد ذلك ، تحسنت بهما الأحوال وانتقلا نقلة أخرى وعرفا معا حياة النعيم .

- المهم من صاحب الكلمة ؟

عاد بدوى للحيرة ، وحاول أن يتخذ قرارا أو يقول كلاما يقترب من الحقيقة ، وفى الوقت ذاته يرضى الشيخ ، مادام قدره أن يقف هذا الموقف وأن يسير على هذه الشفرة الحادة .

- أنا طبعًا .

ثم لحق نفسه وقال :

- لكن لابد لأمها أن تعرف ولها بالطبع رأى .

- على بركة الله .. متى يكون ذلك ؟

ظن بدوى أن هذا القدر من المعلومات قد طمأن هلال ، ومن ثم يمكن أن يرتب بقية المسألة فيما بعد .

- متى يا عم بدوى ؟

- ...

- متى ؟

- متى ماذا ؟

- متى نذهب لمقابلتها ؟

- بضعة أيام حتى أتصل بها وأمهد للقاء .

- ولماذا لا تتصل بها اليوم ونلقاها غدا ؟

- موافق .

- إذن نلتقى غدا صباحا .

- أتصل بها أولا ، ثم أبلغك .

- يا عم بدوى خير البر عاجله ، ولا داعى لتعقيد الأمور .

- طبعا .. طبعا .

- إذًا موعدنا فى العاشرة صباحا .

- الموعد بعد العصر لارتباطى بعمل فى جنينة العمدة .

- بعد صلاة العصر مباشرة ، نتحرك من المسجد إلى بنها .

لم يكن باقيا ليتأكد المارة أن بدوى يبكى إلا تساقط دموعه . فقد كان حزينا آسفا إلى درجة

إحساسه أنه على وشك أن يلطم خديه لولا أنه يرى فى ذلك منتهى العيب .

ما العمل ؟ .. أين يذهب ؟ لمن يشكو ؟ .. ممن يطلب المشورة ؟. يشعر بالاختناق . تهتز ساقاه من تحته ، يحس بألم شديد فى معدته ... بعض أجزائها يتقلص .. ينقبض .. صداع حاد فى رأسه .. أنياب مسنونة وطويلة تنهش جسده .. خفافيش تلف من حوله وتقترب جدا من أذنيه ، بعضها حاول أن يدخل عبه ، بعضها حاول أن ينفذ من فمه . خلا الجو من الهواء .. لا يملك القدرة على الشهيق .. يود من كل قلبه أن يبكى ، بل أن يتقيأ .

حريق فى عينيه وصدره .. بعض قطرات الماء تسيل من أنفه .. حالة غريبة .. هبط الظلام على عجل .. أذان العشاء يتناهى إليه وهو يمشى فى سكة تمضى به خارج البلد.. يريد سكة طويلة لا تصل إلى شىء . لقد استطعت أن أكتم السر الأسود البشع ولم يعرف بالمصيبة أحد ، وطويت كل ما جرى فى نفسى ولم تعرفه إلا زوجتى أم حسنات ، حتى انشراح

نفسها لا تعرف إلا أنها ابنتى . اضطررت أن أقول لها أن والديها ماتا وهى فى سن الثالثة وقيل حينئذ أنهما ماتا فى حادثة .

ها هو الموضوع يطل برأسه من جديد ، والغريب أن أحدًا لن يقوم بهذه المهمة غيرى ، علىَّ أنا دون كل الناس أن أبلغها ، أبلغ كذلك الشيخ هلال .. فيعرف الرجل البركة كل صغيرة وكبيرة عن انشراح . التى أدرك الآن فقط كم يحبها ولا يحتمل البعد عنها ، كما أنه لا يحتمل الاقتراب منها أو الحديث إليها إلاَّ بعد الزواج فكيف يتحقق ذلك ؟

أخيرا عاد إلى زوجته وألقى فى حجرها همه .. وجلس الاثنان بعيدا عن العيال ، وبصوت لا يتجاوز الهمس تبادلا أطراف الحديث .. تشاكيا وتعاتبا ، وكم تجيد النساء توجيه اللوم حتى فيما ليس للرجل طاقة عليه ولا قبل له به .

- كان لازم كذا وكيت ، يا ليتك فعلت كذا .. وفاتك أن تقول كذا .. ومنذ البداية كان عليك .. لو كنت تصرفت يوم كذا بالطريقة الفلانية لما

احتجت اليوم أن . . ولما سألك عن . .

. . صرخ فيها وقام لينام تخلُّصًا منها ومن حديثها الذى لا يحتمله ، تمددت إلى جواره ثم عادا بعد قليل يتحادثان فى غير حدة عن الحل . . اقترح كل منهما حلولا . . كلها فى رأيهما معا فاشلة ولا تنقذ الموقف . . أفضلها يؤجله ولا يحسمه ، ولم يجدا بدا من الاتفاق على أن التصرف المثالى مهما كانت النتائج هو المصارحة والصدق .

ظل بدوى حتى بعد أن نامت زوجته يكرر ما يتعين عليه قوله . . قضى أكثر الليل يقلب المهمة على أوجهها ، ويفحص جوانبها ويعيد تقييم الورطة ويتساءل عن حجم الفضيحة ، وعيب أهل البلد المغرمين بأسرار الآخرين ونشرها والسهر حولها يستدفئون بتكرار تفاصيلها شهورا وسنين .

ما أخفاه طيلة خمسة عشر عاما ، ها هو مطالب بإخراجه إلى الناس ، واستقبال محصول لا ينتهى من كلامهم المباشر وغير المباشر .

- لابد . . أن أصارح هلال قبل السفر إلى بنها

. . فقد يغير رأيه ، وقد تدفعه عاطفته الملتهبة ليمضى فى الطريق حتى النهاية ، لابد أن يعرف كل شىء . هذا حقه ولا يجب أبدا أن نخفى عنه شيئا حتى يستطيع بناء على ما لديه من حقائق أن يقرر ما يشاء . . هذه مسئولية . . والموضوع فى غاية الأهمية لأنه زواج . . والزواج سهل أن يتعكر .



(١٣)

ادعت انشراح السقوط على الأرض والإعياء وتفتت الجسد والدوخة ؛ حتى تترك دوار العمدة . . وقضت معظم الصباح والضحى عند أم هلال . .

شكت من سوء المعاملة فى بيت العمدة ، وشكت من العمدة ووصفته بأنه مجرم وقليل بل عديم الحياء ، أما زوجته فشخصية معقدة تكره كل شىء فى الدنيا ، ولسانها سليط وتتفنن فى أذية الناس وتجد لذة مثل زوجها فى التحكم فى كل من تقع عليهم عينها، وتحاول إذلالهم حتى لو كانوا عابرين من أمام البيت ، ومثلها تقريباً بناتها خاصة فى تعاملهم مع انشراح . ويبدو الجميع كأنهم لا عمل لهم إلا تشغيل انشراح وإرهاقها هى بالذات بالأعمال الكثيرة والصعبة والقذرة .

تبكى انشراح بانفعال شديد وهى تكشف عن حالة عميقة من الذل والقهر ، وعجز من يعنيهم أمرها عن

إنقاذها أو حتى التحدث بشأن تخفيف الأذى الذى يلاحقها كل دقيقة .. خاصة الإهانة والأعمال القذرة ، لكنها فى الوقت نفسه وبينها وبين نفسها تعذرهم ، فمع من يتحدثون ؟ وممن يطلبون رحمتها؟ الكل من أهلها يحبها ويشفق عليها ، لكنه لا يملك القدرة أو الوسيلة لإنقاذها .

اطمأنت قليلا بعد أن حدثتها أم هلال عن عزم ولدها أن يخطبها غدا إن شاء الله . جلست بعض الوقت مع هلال قبل أن يغادر إلى صلاة الظهر .. أنبأها أنه يتوقع معاناتها فى بيت العمدة ، لكن المسألة أوشكت على الانتهاء وسيضع حدًا لذلك كله . وتنتقل إلى عهد جديد وعليها أن تستعد لحياة أخرى تكون فيها معه . يجمعهما بيت واحد وتنتهى تماما كل الآلام . سوف يعيشون حياة هانئة جدًا حتى لو كانت بسيطة ..

تفجر البشر فى وجهها ، وتوهجت ملامحها لمجرد أن يطوف بروحها نسيم الوعد .. ولمجرد أن يقول هلال ذلك فهذا يعنى أن العالم أصبح جميلا

ورائعا . . وأنها قد غدت فيه ملكة متوجة فى ظل رجل محترم وشاب مخلص يحبها من كل قلبه . . ما أروع هذا . . ياه . . ما أروع هذا !

دعاها أن تشاهد المرآة التى صنع لها إطارا خشبيا جميلا وحوله زخرفة ونمنمات فاتنة . . شهقت ، وأزهرت الطفولة فى وجهها وهى تقول : الله . . تحفة . . تسلم يدك . . .

طلب إليها أن تحدثه عن أحلامها ، عن أمانيها ، وعن نفسها . . عما تذكره من طفولتها . . عن تعليمها ولماذا توقفت عند القبول الابتدائى ؟ . . سألها عن الألعاب التى تحبها وطلب منها أن تحكى له بعض النكات إذا كانت تحفظ من ذلك شيئا ، وسألها عن الأغانى التى تحب أن تسمعها . سألته مثل ما سألها ، وأدهشها أن يقول : عبد الوهاب وأم كلثوم غيرًا الدنيا فى مصر . . لم يؤثرا فقط فى الأغانى والموسيقى . . بل فى حياة الناس .

كانت انشراح قد قامت بتنظيف البيت كله وغسلت الملابس ونشرتها فوق السطح ، ونظفت

كل عشش الدواجن وفرشت لها أرضية بنشارة الخشب ونظفت المساقى وملأتها ، طهت الطعام ثم أعدت صينية بسبوسة .. قضوا جميعا ساعات هنيئة .. استشعر فيها هلال السعادة وامتلأ حماسا نحو الإسراع بالارتباط بانشراح حتى ينتقل البيت كله نقلة أخرى ، أما هو فقد خامره يقين لا يخالطه أدنى شك بأنه سيعرف حقا معنى الحياة ، والمقصود بكلمة سعادة .

- أثق تماما أن السعادة تكمن فى الاقتراب من الله بكل الوسائط وإن كانت المرأة الصالحة أساسًا مهمًا من أسس السعادة ، وليس ذلك معارضا أبدا للتوجه نحو الله بل على العكس ، فهى نعم المعين.

لم يستطع بدوى أن يقول حرفًا للشيخ هلال ، واتجها معا إلى بنها ، وبدوى لا يملك إلا الزفير كل دقيقة ليخرج ما احتشد به صدره من صهد الهموم ودخان الحيرة .. وهكذا سار .. وكلما قطع خطوات أوشك على الوقوع ، وضل الطريق عدة مرات ، مع

أن العنوان حسب ما قال سهل واضح ، فمقام الضُعَيِّف على كورنيش النيل . .

قال بدوى :

- هناك عمارة بناها محسوب قبل أن يموت وكتبها باسم شافية زوجته .

- والسيدة شافية تقيم فيها ؟

اضطرب بدوى .

- نعم . . أظن . . منذ مدة لم أرها ولا أعرف أخبارها .

- ألم تتصل بها بالأمس ؟

- لا . . أقصد لم أجدها .

عندما وصلا العمارة وأشار إليها بدوى ، وهمَّ هلال أن يندفع نحوها ، متعجلا الانتهاء من هذا اللقاء ، وقد كان يوطن نفسه على أن يوافق على كل ما تطلبه والدة الحبيبة ، وأن يذعن لأوامرها ، وروَّض نفسه أيضًا أن يتحملها إذا كانت عصبية أو شديدة اللهجة . . كل ما يرجوه أن توافق على زواجه من انشراح وبسرعة ؛ إنقاذًا لها مما تعانيه لدى العمدة

غليظ القلب ، وإنقاذا له من العزوبية التى تجعله يحلم كثيرا ويستحلم ، ويضطر للاستحمام بمياه باردة قبل الفجر دون أن يجسر على إشعال وابور الجاز حتى لا تنزعج والدته ، وكى لا تفكر فيه على نحو بطّال .

ظل بدوى طوال الطريق يعانى من أسئلة هلال .

- ما السر فى أنها لم تسأل عن ابنتها ؟ ولماذا تعيش بعيدا عنها ؟ ولماذا لم تعلمها ؟ ولماذا لا تنفق عليها ؟ . . ولماذا . ولماذا !

هداه فكره إلى أن يقول له وهو يرفع رأسه إلى أعلى .

- نوافذ شقتها مغلقة ، ولعلها لا تكون موجودة الآن ، هيا نجلس على المقهى بعض الوقت ، ثم نمضى إليها أو أسبقك لأرى إذا كانت موجودة أم لا . . هيا بنا . جف حلقى تماما .

لقد قرر قبل لحظات فقط ولآخر مرة أن يلقى بكل ما معه وليحدث ما يحدث .

(١٤)

سقطت المعلومات الجديدة عن والدة انشراح ووالدها على رأس هلال فاهتز بشدة ولم يجد بُدًّا من الاعتكاف بالمسجد عشرة أيام لا يكلم أحدا ، ولا يكف عن القراءة إلا للصلاة وشرب الماء والنوم ساعتين قبل الفجر ومثلها بعده .

ختم القرآن مرتين وقرأ « السيرة النبوية » لابن هشام وكذلك « أسد الغابة فى معرفة الصحابة » . . حيث تعرف على أسرار عظمة هذه الكوكبة من رواد الدعوة الإسلامية ونماذجها العالية فى التقوى والصلاح والزهد .

اجتهد أن يرتد لزمانهم وينتقل إلى حيث كانوا . . عاش معهم ونهل من منابعهم وأحس إحساسهم . . حاول أن يكون من مريديهم . محا من ذهنه تماما كل ما هو خارج جدران المسجد ، وقطع كل علاقة به . . أغمض عينيه عما يشير إليه ، وتجنب نوافذ

المسجد حتى لا يطالع ولو بالصدفة ما يذكر بالناس وأفكارهم ومشكلاتهم ونوازعهم . .

أغلق أذنيه عما هو غير القرآن والنصوص الدينية الرفيعة ، استطاع بقوة وفى مدة وجيزة أن يعيش حالة قديمة جدا من السمو والشفافية . . حالة تخصه وحده .

جاءته أمه ثلاث مرات فلم يستجب 'دعواتها . . كل ما فعله أن استدعى أخاه وعرفه فقط أنه سيلتزم المسجد أياما كثيرة لا يقدر عددها .

بعد إلحاح قبل لقيمات من أمه ومن صديقه بيومى الشربينى الذى لم يقبل هلال الحديث معه إلا كلمات معدودة .

كتم فى قلبه ما سمعه من بدوى . كان مفاجئا له وصادمًا ومرعبًا . . كان فوق طاقته ، أدرك ضخامة المهمة وعظم الأمانة ، قرر ألا يحملها أبدًا مهما جرى ، وليعش راهبا . . زاهدا . . يهب روحه وجسده لله وللمسجد ولمرافقة الناس فى طريقهم إلى الله . وتمنى على الله من كل قلبه أن يجنبه هذا الطريق وينزع من روحه هذا الحب .

- كم فى سلوك البشر من جنون وغلظة ! كيف يمكن أن يقدم الإسان على مثل تلك الأفعال ؟ . . وإذا كان ذلك فى عهود البداوة أو الجاهلية فما المبرر لأن يحدث هذا وقد قطع الإنسان أشواطا هائلة على طريق الوعى والتقدم وأصبح سيد الأرض بحق ، وفى الوقت ذاته فقد ظهر جليا عدم جدوى التمسك بالحياة إلى درجة الاقتتال فهى فانية ، قصيرة العمر . . ليس فيها غير ذكريات طيبة لمواقف جميلة وأيام هنيئة بالمحبة والرضا وتواصل الناس فى الخير . . لقد شبع الإنسان معرفة واطلاعا على تجارب السابقين واكتشف كل شىء يخص فلسفة الحياة . . فلم الصراع وعلى أى شىء ؟ لم يعد خافيا أن المال غدا المبتغى والأمل بوصفه القوة التى يسعى لامتلاكها كل إنسان لنيل أكبر قدر من الملذات والمتع ، . . . . و . . . . . . ولكننا سنصطدم بنفس السؤال ، وماذا بعد ؟ واصطدم به قبلنا الملايين من البشر .

كان ذلك فقط فى أول يوم من الأيام العشرة ، حيث قضاه تحت وطأة الأخبار التعسة التى تخص

كائنا جميلا ، قدر له أن يوجد فى القرية ويمشى ويعيش بينهم .

- كان الأساتذة فى المعهد يقولون لنا أن الإنسان يتميز عن الحيوانات بالعقل وبالذاكرة فهو يفيد من تجاربه ، أما الكائنات الأخرى فلا ، إلا القليل جدا منها فيمتلك قدرة محدودة على الربط بين العلاقات والأشياء . ويتذكر بعض تجاربه فيفيد بها فى مواقف مماثلة .
- لكن الواقع والحقيقة والمعاينة المباشرة لسلوكيات البشر لا تكاد تكشف عن شىء من ذلك إلا قليلا ، فبعد مسيرة طويلة تتجاوز عشرة آلاف من السنين ، تلقى خلالها الإنسان الكثير من العلم الإلهى والوضعى والمعارف السماوية والإنسانية التحريرية والشفهية ، النظرية والتجريبية ، سواء من ثمار التأمل والحكمة أو من محاصيل الممارسة الفعلية ، ومع ذلك لا يكاد يقيم وزنا للدين والأخلاق ، وقليل من تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا ،

وأكثرهم لا يميل إلى العدل . . وتخلو معظم النفوس من العفو والمغفرة . لا يحس البشر بمشاعر الآخرين ، ويفتقرون إلى التسامح . .

- ما كل هذا الغرور والاستعلاء والكذب . . من أنت أيها الإنسان ، إن أنت إلا نطفة . . بعوضة . . حشرة . . نَفَس قليل جدا جدا من الهواء . . طامن من خيلائك . . أنت لا شيء . . ما هذا الطغيان وذلك الجبروت ، وعلى من . . على أخيك الإنسان . . كيف يجسر قائد أن يصدر قراره ببساطة بشن حرب تضيع فيها الآلاف من الأرواح والآمال والمشاعر . . كيف لا تهتز شعرة فى بدن شخص يقتل مئات الشباب ويدمر حيواتهم بالمخدرات كى يكسب مالا كثيرا وسريعا . . أليس ثمة لحظة يتذكر فيها الإنسان عواقب أعماله وخواتمها ؟ . . أليس ثمة فرصة لتأمل أو تذكر لصاحب هذه الأرض وخالق هؤلاء البشر ؟ أليس ثمة فرصة للتفكير فى الموت

ويوم الحساب ؟ . . ثمة فرصة للنظر فى طعم السعادة التى تم إعدادها بدماء البشر وأمنياتهم المتواضعة فى حياة آمنة .

- أفق أيها الإنسان . . أفيقى أيتها البشرية الحمقاء . . طامنوا يا أبناء آدم من غلوائكم وأحلامكم فمهما بلغت وبلغتم فكل ذلك إلى التراب ولا يبقى إلا وجه ربكم ذو الجلال والإكرام .

- أما أنت يا عبد الله . . يا هلال رمضان العبد . . فليس أمامك إلا أن تشرب الصمت وتنوء بأثقال الهوى . . اقفل على القلب أبوابا من حديد ويأس . . وارم أشواقك المتوردة فوق جبال بعيدة لا تسكنها إلا الأفاعى والنسور والضباع التى تقتات الجيف . . لن يجتمع الليل والنهار مهما تبادلا رسائل الحب والوجد . . كلما أسرع النهار يروم أن يلحق الليل لم يلمس إلا ذيوله ،كلما حاول الليل أن ينتشى بالنور لن يعثر إلا على آثار ندية من خطى الفجر الهارب .

(١٥)

فى اليوم التالى وبعد صلاة الجمعة التى يتجلى فيها هلال ويسافر بعقول العباد إلى يوم الحساب وإلى أصحاب رسول الله .. الدرر المضيئة والمشاعل الوهاجة فى الحق والخير .. وبعد أن يسحرهم بأسلوبه وبلاغته وعذوبة صوته وطريقته الجذابة فى الإمساك بهم والتنقل بأرواحهم بين العوالم المختلفة ، فإذا جميعهم معلقون بنبراته وإشاراته ونظراته وسكناته ولفتاته ، وإذا هم جميعا مفتوحو العقول والأرواح والأفواه والآذان يتلقون ما يصب فيهم ، ويعجبون ويدهشون ويسلمون ويزدادون رضا عنه وفرحا به ويقرون بما اقترفوا ويندمون ، ويعتزمون التوبة والتخلى تماما عن المعاصى ، ويقسمون ألا يعودوا إليها أبدًا . فى أعقاب ذلك مباشرة وهم لا يزالون فى رجفة التأثر وشرنقة الخشوع ، ها هو مسعد حجاب بجسده الضخم وعقيرته الخشنة المستفِزّة يقف

متشامخا ومستأسدا يصيح أمام الخارجين لتوهم من عبق التقوى بعد أن استحمت الأرواح فى ماء القداسة والطهر ، وتعطرت بآيات القرآن وأحاديث المصطفى . . ها هو عمدة البلد صاحب الكرش الكبير الذى يبدأ من ثدييه حتى ما فوق فخذيه بمساحة متر فى متر ، يزعق قائلا :

- اشهدوا يا أهل البلد . . اشهدوا على ما لم يحدث فى بلدنا ولا فى غيرها . . شيخكم الذى كان يعلمكم التقرب من الله منذ قليل يتهمنى بأنى أسهر فى الخمّارات . . كيف يتهمنى دون أن يرانى ؟

هذا الذى يحمل كتاب الله ، يتهم العبد لله بما ليس فىّ أبدا ولم يكن فىّ يومًا . . أنا الخادم لكم . . الواقف دائما إلى جانبكم أحل مشاكلكم ، وليس فى البلد بيت إلا وفيه بعض من خيرى . . أقصد طبعا خير ربنا .

البلد بلدى يا شيخ الجامع ، والأرض كلها أرضى ، ولا يملك ولا يقدر شخص أن

يقول عنى ما قلت ، إلا إذا كان معى .

كيف حدث أن بلغت الأمور هذه الحالة من السوء ؟ . . وكيف حدث أن انتهى الوضع بينهما إلى هذا الموقف المشين ؟ . . الغريب أن الشيخ لم يستطع أن يفتح فمه بكلمة . . والناس وقفت تنتظر منه أن يفحم العمدة .

العمدة ، الذى يكرهونه ، وليس هناك بيت واحد لا ينام على أمر آخر غير مضغ سيرته ، واستعراض أفعاله وأقواله المثيرة للسخط ثم سبه هو والبطن التى حملته ، والرجل الذى أودع بذرته ، ويقال أنه كان مثله تماما ، وأن الخلف لا يتفوق على السلف . . وحظ البلد مثل تراب الفرن منذ وعى الناس ولم يسمعوا من أجدادهم غير ما هم فيه . . بعد ذلك يأتى النوم هينا ولذيذا وعميقا .

الشيخ هلال اللبق المثقف الذى يتحدث إلى عشرة وبإمكانه أن يرد عليهم جميعا فى وقت واحد فى وداعة وثقة وأدب .

الشيخ هلال الذى يسعى بعقله ورشاده بين

الناس ، واشتهر بينهم بكل الصفات الحسنة ، وفى مقدمتها الصدق والعفاف والأمانة وحب الخير ، وكل ذلك يوفر له قوة النفس وعلو المكانة ، كيف أصبح الآن يخوض فى هذه البركة من الضعف والعجز !

المشكلة بدأت عندما أعلن الشيخ تبرع العمدة بمبلغ كبير للمسجد الجديد الذى يسعى جاهدا لبنائه ويجتهد فى جمع التبرعات المطلوبة له حتى يستوعب كافة المصلين اليوم ولعشرين سنة قادمة .. ومن أجل تشجيع الناس والأغنياء منهم خصوصًا ... كما أن الكل يعرف أن الشيخ يريد أن يشتمل المبنى الجديد على وحدة صحية ومكتبة وقاعة أو فصل لمحو الأمية .. ومدرسة بالإضافة إلى المسجد، قال الشيخ :

- العمدة سيفتتح التبرع بألف جنيه .. وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

تلفت الجميع إلى الجميع وتبادلوا النظرات والهمسات .. وتساءلوا فى السر والعلن :

- العمدة يتبرع بألف جنيه ! مستحيل .. لو

انطبقت السماء على الأرض لا يهون القرش عليه ، ثم إنه لا يصلى .

- عجيبة .
- العمدة الذى لايدفع مليما لعلاج ابنه المريض .
- العمدة الذى يأكل مال النبى ، ويأكل عرق الغلابة الذين يعملون فى أرضه .
- العمدة يدفع ألف جنيه .
- مستحيل .
- العمدة الذى لم يجهز بناته واشترط على الأزواج شراء كل قشة .
- العمدة الذى . . .
- العمدة الذى . . .
- مستحيل .

وقف العمدة وقد اسود وجهه أكثر من سواده الطبيعى ، وبدت رقبته أغلظ كثيرا مما هى عليه ، وبدا فمه كبيرا جدا وأسنانه طويلة مقتحمة حتى السِّنَّة الذهبية على اليمين والفضية على اليسار . والناس كالعادة لا يعرفون إلى أى جهة ينظر بسبب

عينه الحولاء . بدا جسده الكبير أكثر ضخامة ، وأضاف إلى هذه الصورة الفظة تلويحه بعصاه البنية الغليظة .

- يرضيكم يا بلد ؟

هل كان الشيخ هلال يتصور أن الحفرة التى أعدها للعمدة انتقلت من تحت أقدام العمدة إلى ما تحت أقدامه ، واتسعت كثيرا بجبروت العمدة وفجوره ووجهه المكشوف .

ها هو العمدة يواصل الحفر بسبب تورط الشيخ بالإعلان عن سخاء العمدة .

لابد أنه الآن يشعر بعمق المأساة وتسرعه منذ البداية ، وفاته - ولا يدرى أحد كيف فاته فالرضيع يعرف طبع العمدة - أنه لا يكره فى الدنيا قدر كراهيته لمن يسأله مليما ، بل إنه كما يقال لا يتشبث بالعمودية من أجل السلطة فقط ، ولكن لأنها تعطيه الفرصة كى ينهب الناس ويتغاضى عن دفع ما عليه ، ويتهرب من سداد ما يؤدى إليه من خدمات ، وإذا تجرأ أحدهم وطالب بدينه ، فالرد جاهز .

- يا بلد لا تعرف الحياء ، وليس فى وجهها نظر . . أنا فى خدمة البلد ليل نهار ، لا أحصل على مليم .

ويمضى فى توبيخ ذلك الدائن ليسمع ما لا يرضيه حتى يسكت بل ويعتذر .

كيف تورط الشيخ هلال هذه الورطة لمجرد أن نقل إليه البعض أنهم رأوا العمدة فى أحد الكازينوهات بشارع الألفى ، وكان يلقى العشرينات من الجنيهات على الراقصات وهن يعانقنه ويراقصنه .

دعا العمدة الشيخ هلال إلى زيارته ، وسأله فى جلسته الودية :

- أنت تعلم أن الظروف هذه الأيام صعبة جدا فلماذا أعلنت عن تبرعى للمسجد بهذا المبلغ الكبير ؟

- من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون . . اشكر الله يا عمدة . . أنت مقصر فى حق الله ، وكان فضله عليك عظيما .

- الحمد لله . . لكن كان يجب أن تسألنى أولا . .
- أحببت أن أقدم للناس النموذج الأعلى فى التبرع ، والتبرع جهاد كما لا يخفى عليك .
- جهاد !. لا . . أنا لا أحب الجهاد .
- الجهاد ليس الحرب . . الجهاد أى مزيد من الدعوة للحق ومساندة الناس على الخروج من ظلام الجهل إلى نور الإيمان .
- أنت تقوم بكل هذا .
- أين ؟
- فى المسجد .
- به شقوق طولية فاصلة .
- تُرمَّم .
- أهذا ما تفعله فى بيتك ؟
- لم يحدث .
- وإذا حدث .
- قليل من الطين والتبن تنهى المهمة . . الحياة زائلة يا شيخ فلا تهتم بالمظاهر .
- أهم بيت فى البلد يجب أن يكون بيت الله .

- ما علاقتى أنا ؟
- فى هذه النقطة بالذات أنت الرئيس .
- تبرع أنت بالألف جنيه يا مولانا .
- أتبرع بها باسمك .
- باى اسم .
- لن أسحب ما قلته ، سأقول هذه الألف من العمدة . . هل ترضى ؟
- أرضى .
- يا رجل أنفق على المسجد . . أنفق بعض ما تنفقه هنا وهناك .
- ما معنى كلامك ؟
- ألم تنفق المئات على الراقصات فى كازينوهات مصر ؟
هب العمدة واقفا وقد احتقن وجهه .
- ماذا جرى يا شيخ هلال ؟ هذا كلام لا يصح أن يصدر منك .
- أثق بمن قالوه .
- واجهنى بهم . . من هم ؟

- دعنا من هذا وادفع الألف للمسجد والوحدة الصحية .. مشروع كبير تفخر بأن يتم فى وجودك .
- لن أدفع إلا بعد المواجهة .
- لا داعى لذلك حفاظا على صورتك .
- أنت الذى تشوه صورتى .
- بيضت صورتك أمام الناس ، وفى السر .. بينى وبينك أعرف ما جرى .

زادت ثورة العمدة وهو يقول :

- أنت تهددنى .
- ارتاح يا عمدة ودعنا نتفاهم . اهدأ لم كل هذه الثورة ؟

جلس العمدة وقد طامن من ثورته حديث الشيخ وقال :

- كيف أهدأ وأنت تهددنى ؟
- أنا لا أهددك .. أنا أرجوك .. لتكن أنت السبَّاق فى الخير .
- أنا السباق دائما فى الخير والكل يعلم .. قبل

أن . . .

- قبل ماذا ؟

- يا شيخ هلال . . واجهنى بمن اتهمنى ظلما . .

-لا داعى . . أرى أن تبرعك فرصة لإسكات كل الألسنة .

- أية ألسنة ؟

- أنت تعرف كل شىء يا عمدة فلا تخدع نفسك .

- وغلاوة أبيك رحمة الله عليه وكان صديق عمرى . لن أبقى فى الدار ثانية واحدة وسوف أخرج إلى الناس لأدعوهم كى يحكموا بيننا . . لن أسمح لأحد أن يتهمنى ظلما . . أنا أشرف من الشرف ذاته . . الحكاية ليست مجرد زبيبة فى الرأس ونقرها على الحصيرة .

- يا عمدة أنت تتهرب وتغير الموضوع .

- لن تغمض لى عين إلا بعد معرفة من قال ذلك .

- مصرّ .

- جدا جدا .

- لطيف الشناوى .

- الولد الفاشل الذى يعيد كل سنة فى الجامعة ثلاث مرات .

زعق العمدة فجأة :

- يا خميس .. أنت يا خفير الغبرا .

أسرع الخفير قادما .. قدمه تتعثر فى حذائه ، وفمه يتعثر فى لقيمات يحاول أن يزدردها وهو يقول : حاضر .. طيب .

- قب واغطس تجيب لى لطيف الشناوى .

وقبل أن يغادرالخفير الدوار .. صرخ فيه :

- انتظر يا ولد .

وتوجه إلى الشيخ سائلا :

- ومن غيره ؟

- ..

- قل يا سيدنا من غيره ؟

- أنت تريد أن تشعلها حريقة .

- لابد أن أشعلها حريقة تأكل الجميع .. لن أسكت أبدا .

كان العمدة ينشال وينحط ، ويخبط بعصاه الأرض ويكاد يغرسها حتى رأسها .

- يا عمدة .

- لا يمكن .. سبق السيف العزل .. قل يا سيدنا ومن غيره ؟

- جابر كمونة .

- اتلم المتعوس على خايب الرجا .. الكلاب أولاد الكلاب ، النذالة فى طبعهم .

- يا عمدة .. اسمعنى .. أنا أرى ...

- أنت يا زفت يا خميس .. وحياة أمك لو رجعت بدونهما لقطعتك ووزعتك على الجمهورية ولا تنس أن اليوم هو الخميس .

بقى الخفير لحظة ليفهم ، ثم قال :

- وإذا .. أقول إذا يعنى .

- كلمة واحدة .. لا تعد بدونهما .. وإلا ستبيت فى الترعة ، وأنا فوقك ، يكون ربنا أكرمنا وتخلصنا من بهيم .. وحياة العمشة .. أمك .. لن تطلع عليك الشمس . نهارك أسود من ليلتك .

أسرع الخفير وهو يتساءل عما يقصده بأن اليوم هو الخميس .

– هل تراه يقصد أننى لن أذهب لأبيت مع جماعتى ؟ أم أن الخميس يتلوه الجمعة ؟

مضى يسأل نفسه : يا ترى يا واد يا خميس ما قصد العمدة ؟ . . يا ترى يا واد يا خميس ما قصد العمدة ؟

جاء الخفير بالشابين . . وتحلق جميع الخفراء ليشهدوا المعركة وفى قرارة النفوس يتمنوا أن يوجه الشيخ صفعة قوية للعمدة . . اقتربت بنات العمدة وأولاده والخدم من الباب ، وكمنوا فى الظلام يتسمعون ولا يتنفسون .

فوجئ الشيخ هلال بالشابين ينكران كل ما قالاه له . . وقالا لقد ورد ذكر اسم العمدة فى حديثهما مع الشيخ حيث قالا أنهما رأيا العمدة فى مصر فقط . . هذا كل ما ذكر ولا شىء غيره .

حاول الشيخ أن يذكر كلا منهما بما قاله ويشير إلى كلمات بعينها ، لم يستجيبا له ، كأنه لا يتحدث

إليهما . . وسرعان ما نهضا ليقولا للعمدة :

- عن إذنك يا حضرة العمدة . .

وقف العمدة ووضع كلتا يديه على كتفى الشابين :

- رجال أولاد رجال . . الأصيل أصيل .

هب الشيخ فجأة واقفا وخرج وهو يقول :

- الويل لشاهد الزور . . ويل للمنافقين . . أستغفر الله العظيم .

مضى الرجل يشق طريقه فى الظلام . لا يدرك شيئا مما حوله وقد استشعر أن الظلام غادر الدنيا وقفز إلى أعماقه وإلى عينيه . . . . مضى يستعيذ من الشيطان الرجيم الذى يعبث بالأرواح والألسنة . إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم . . أصابه فزع شديد ودهشة هائلة بسبب تصرف الشابين وإنكارهما ما أقسما عليه له . . ما هذا الموقف التعيس وكيف يحدث هذا ؟ فكر أن يذهب إليهما . لكن كرامته لم تسمح له . . لمن يشكو همه ؟ على من يعرض جرحه الدامى ونفسه المحطمة .

- يا رب إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ،
يا رب أنت أملى ومرتجاى ونور قلبى وطريقى . .

مع كل خطوة فى الظلام آهة إلى السماء ، وشكوى إلى رب السماوات والأرض . . ولما أوشك على الإحساس بأن جبال الهم تداعت قليلا . . تذكر العمدة الذى قبض على ورقة كبيرة فى يديه ، وأخذ يتساءل عما يمكن أن يفعله العمدة ، إلى أى مدى يمكن أن يبلغ به غضبه وانتقامه ، والأمور بينهما ليست على مرام .

قضى ردحًا طويلا من الزمن الثقيل فى معاتبة نفسه والشكوى إلى صاحب الملكوت وفى استقراء تاريخ العمدة وتصور أبعاد انتقامه وموقفه من التبرع . . رب نجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين .

فى البيت عكف على الصلاة حتى الفجر ، وعندئذ حط الجسد وتمدد فى موضعه حتى أيقظته أمه قبل صلاة الجمعة بساعة ، وقد سبق أن دخلت عليه

ووجدته غارقًا فى النوم فأشفقت عليه .

بعد صلاة الجمعة ظهر العمدة وزعق فى الناس :

- يا أهل البلد تعالوا شوفوا الشيخ هلال ماذا فعل بعمدتكم .. شوفوا الشيخ الذى يعلمنا الأخلاق ، كيف تصرف معى واتهمنى فى شرفى وحاول تشويه صورتى أمامكم .

الشيخ هلال يود أن يفتح فمه بكلمة ، لكن العمدة لا يتيح له الفرصة ويبدو عملاقا وبيده عصاه الغليظة كأنها ذراعه الطويلة ، يطوحها فى الهواء ويكاد يقصد أن تطول الشيخ .

لا يتوقف عن الصياح وعن التذكير بأفضاله ، والمشاكل التى ازدادت منذ ظهر الشيخ .

- يريد يا بلد أن يوقع بينى وبين الناس المحترمين الذين ربوا أولادهم أحسن تربية مثل على الشناوى وحسنين كمونة ، وقفوا فى وجهه ومنعوه من إكمال مؤامرته ضدى .

الشيخ هلال مبتل تماما .. منهار .. ترتعد ساقاه

وفخذاه ، وكل أعضاء جسمه حتى الكاكولا والعمامة .. يرتعد لسانه وتزيغ نظرات عينيه ولا يجد ريقه ولا رأسه .. بلاغته اختفت ، وتلاشت حججه وتبخر منطقه وبيانه ولغته الساحرة ، ومع ذلك كان يحاول قائلا :

- تسمحوا لى أوضح لكم الأمور يا جماعة .

لكن العمدة يسرع بالمقاطعة والصراخ والحديث عن الشرف الذى يتمتع به ، وأعداؤه الذين يتربصون به مع أنه خادم البلد وعنده القدرة أن يواصل خدمتها كما فعل من قبل أبوه وجده .

كان الشيخ متوترا جدا لأسباب كثيرة ؛ فى مقدمتها انشغاله بالتفكير فى هذا الكائن الغريب الذى يقف أمام الناس كالجبل .. يتعثر الشيخ فى فكره :

- كائن مجرم وجبار .. شيطان رجيم حقا ..
خبيث وشرير ، سلمنى له الحماران على طبق
من فضة .. لا يمنعه دين أو حياء من اقتحام
الناس .. لا تعنيه الحرمات والأعراض ..

من أى عجينة خلقه الله . . هذه يا هلال أتعس كوابيسك . . المشهد كله قميىء ودنىء . .

الشيخ يتحلل داخل نفسه . . بعضه ينهار فوق بعضه ، سفينة عقله تفتتت إلى ألف قطعة وليس له غير عيون ترى العمدة الجبل كأنه يتضخم ويتضخم ثم يدهسه بقدمه الأسطورية الثقيلة .

لطيف الطالب بكلية الحقوق وجابر الذى تخرج منذ سنوات ويبحث عن العمل ويعتمد فى مدده المالى على لطيف الثرى .

لطيف حكى لوالده صديق العمدة فطلب إليه أن ينكر وجاراه جابر حتى لا يفقد الممول . . ويفقد بالتالى العزوة والمتعة والوقت اللذيذ .

كاد الشيخ هلال أن يفقد عقله وآثر الانسحاب وهو يستغفر الله ويعــوذ به من الشياطين . يطــارده - رغما عنه - المثل الذى يقول ضعف الحائط يغرى اللصوص . . عاد إلى المسجد ودخل حجرته تحت المنبر . . وما أن بلغ عتبتها حتى ألقاه الهم الثقيل على الأرض وظل مرميا فترة

حتى أفاق ، فأعاد الوضوء وصلى عدة ركعات . .
ثم قرر الاعتكاف . وهو يردد : « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين » .



القسم الثانى


محسوب للمحبوب

(١)

هشام قراميط يوشك أن يجن ، كل الدلائل تشير إلى قيام محسوب أبو دومة وزوجته شافية بتجارة المخدرات ، والعيون رأت وأخبرت ، ومن يتعاملون معهما بأنفسهم أبلغوا وشهدوا واعترفوا ، عند الهجوم عليهما لا يجد هو ورجاله شيئا .

انشغل هشام تماما بهذين الشخصين بالذات ، محسوب تاجر حبوب فى شارع «اللحمة» ، كل الشارع جزارين إلا هو .. اختار أن يتاجر فى الحبوب .. فاصوليا بيضاء ولوبيا جافة ، كبيرة وصغيرة ، عدس أصفروعدس بجبة ، فول للتدميس وفول مدشوش وفول الدواجن ، ترمس بلدى ومستورد ، حلبة وذرة بيضاء وصفراء وأرز وقمح .

أكثر من عشر مرات يهجم هشام على المحل ويرحب به محسوب ، يقوم الضابط مع تجاهل الرد على الترحيب بتقليب كل أجولة الحبوب ، المفتوح

منها والمخيط والذى فى القفف ، الغريب أن المخدرات موجودة بالمحل ولا يستطيع الضابط البارع أن يصل إليها . ويلاحظ قراميط أن البيع والشراء فى طريقه لا يتأثر بهجماته ، ولا يبقى للضابط إلا الحرج من الضبطية «الفشنك» ويضطر لكبح جماح غضبه ضد من أبلغه ، وفى أكثر الأحول يتلقى المخبر الذى تورط بسببه صفعة محترمة ، وكثيرا ما يعرف المخبر النتيجة سلفا فيولى الأدبار ، أو يجهز نفسه لتفادى اللطمة .

يثور محسوب ، ويسب ويلعن الكلية التى أخرجت للدنيا هذا الضابط الذى لا عمل له إلا أن يترصد الناس الطيبين الذين يسيرون مثله بجوار الحائط .

فى مرة خبأ لفات الحشيش فى الباب الصاج الملفوف والمجتمع فى نهايته قبل السقف ، وفى مرة ألقاها فى بطن بقرة مذبوحة ومعلقة عند جاره شقيق زوجته ، ومرة فى شوال تبن تعود أن يجلس عليه . . ومرة فى فتحة غرفة تفتيش المجارى ، وفى مرة دسها

فى فانوس رمضان المتدلى أمام المحل .

وفى مرة وراء اللافتة الكبيرة المكتوب عليها « محسوب للحبوب » ؛ اللافتة تبعد عن الحائط حوالى عشرين سنتيمترًا ، وتحتها لوح خشب كأرضية وبالأرضية عدة ثقوب صغيرة لتصريف مياه المطر .

خصص هشام أحد رجاله لا يبرح شارع «اللحمة» ، ويجلس دائما على بعد محلين من محسوب . عيناه عليه طوال اليوم ، والتليفون على الناصية على بعد محلين من موقع المخبر . . الأوامر واضحة ومشددة :

- عند التأكد من رؤية الهدف اتصل . . القوة بعد دقائق تكون عندك .

فى أحد الأيام قال هشام لمحسوب .

- أنا لست عدوك .

- بل أنت عدوى .

- لماذا ؟

- لأنك تتجاوز حدودك وتقيد حريتى وتسىء لسمعتى .

- هذا عملى وليس تجاوزا للحدود .

- أنا صبرى نفد .
- ماذا ستفعل . . ماذا يمكن أن تفعل ؟
- يكفى أن أرفع قضية على الشرطة .
ضحك هشام وقهقه ، فقال محسوب :
- غدًا . . ربما تندم على معاملتك لى .
- دعك من هذا الكلام الفارغ ، وأجبنى . . هل أنا أكرهك أنت شخصيًا أم أكره فعلك ؟
- طبعا غير معقول أن تكره تجارة الحبوب ، إذن فأنت تكرهنى .
- لنفرض أنك محق . . لماذا أكرهك ؟ . . هل أنت منافس لى فى عملى ؟ . . أو فى حب ؟ هل قتلت أحدًا من عائلتى ؟ هل سرقت مالى ؟ هل تقف فى طريق مصالحى ؟
- تكرهنى لأنى أرفض تصرفاتك ، ولا أسمح لك باتهامى بالباطل وأنت تريد أن تترقى على حسابى . . تبحث لك عن جسر يوصلك للرتبة الأعلى .
- ولماذا أنت بالذات ؟

- لأنى أوقفك عند حدك .
- لا أنت ولا أجدادك يستطيع .
- بل أستطيع . . أنت تحسبنى مثل هؤلاء الذين تضربهم فى مؤخراتهم بأقدامك وتصفعهم وهم ينحنون : تحت أمرك ياباشا . .
. . أنا وأهلى الذين ماتوا خدامين تراب رجليك ياباشا .
- واضح أنك تعوم فى العسل ولا تعرف أن الناس اختلفت ، والأوضاع تغيرت . . وانتهى هذا الزمن . . ومن تتحدث عنهم لم يعد لهم وجود . . الحق هو السيد وهو القوة ، ولا يمكن لأحد أن يظلم بريئا .
- المهم أنك لابد أن تعرف جيدا أن من يقترب منى سآكله بأسنانى ولو كان وزير الداخلية نفسه .
- الكلام معك لن يفيدك . . أنت مسكين . . الشر متغلغل فى نفسك .
- الشر ؟

- نعم .. الشر .. هل ترضى يا رجل أن تطعم ابنتك انشراح من حرام .. هل ترضى أن يموت ولدك - لو كان لديك ولد - من الحشيش أو البانجو .. السم الهارى الذى توزعه عليهم .

- أنت تتصور أشياء غريبة .. أقسم لك أن هذا غير صحيح . سنين وأنت لا تريد أن تقتنع . من الذى وضع هذه الأفكار فى رأسك .

- يا محسوب حرام عليك .

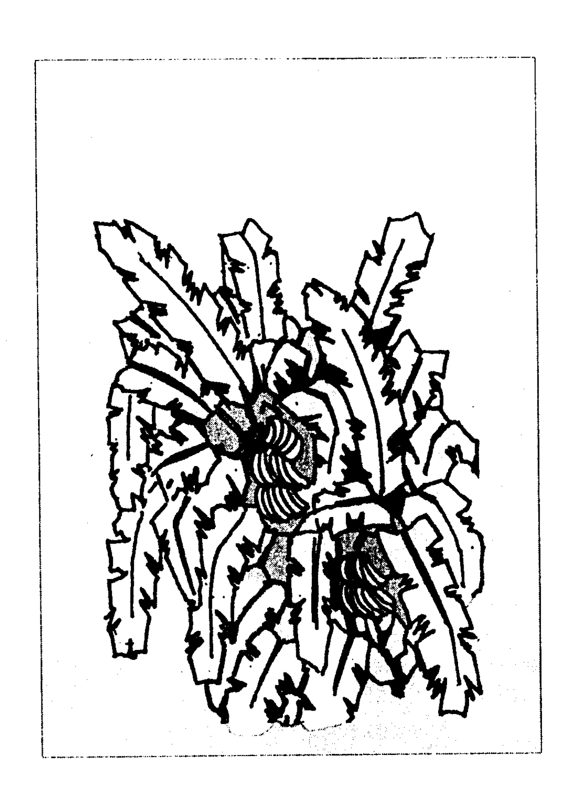
- الظالم هو الذى يقول للمظلوم .. حرام عليك .. عجبت لك يا زمن .

- يا محسوب .. نريد خطوة إلى الأمام .. كلنا يتمنى أن تخرج البلد من محنتها وتتخلص من أسباب التخلف .. وأنت وأمثالك تدمرون الشباب .. والأمل كله فيهم والاعتماد كله عليهم .. شفت كيف أنك خطر على البلد وتعمل ضدها .

صفق محسوب مهنئا الضابط على خطبته .

تنهد قراميط ونظر إليه نظرة عتاب ، وهمّ أن يستدير ليتركه ، لكنه توقف لحظات ليقول:

- للمرة العاشرة أقول لك يا محسوب .. حرام عليك.. أنت تبنى الآن عمارة على الكورنيش وفيلتك أول طريق الرملة بدماء الشباب ، وسمعت أيضا أنك تستعد لرحلة الحج .
- سمعك ثقيل ياباشا .. هذه هى الحجة الثالثة والعمرة السادسة .
- هل تحسب يا محسوب أنك عند الله محسوب ، وهل سيتقبل ؟
- ادع لنا .. ربما كانت دعوات الشرطة عند الله مستجابة .



(٢)

بعد أيام وصلت الإخبارية من أمام ڤيلا محسوب وشافية .

- البضاعة تدخل الآن . . أمام عينى .
- محسوب موجود ؟
- موجود .

كانت الڤيلا تقع على النيل أول طريق الرملة ببنها أمام عزبة على باشا فهمى ، بعد منزل كمال الدين حسين بعدة بيوت . . غطس المخبر فى مزارع على فهمى حيث حدائق الموز الشاسعة والكثيفة . . رأى كل شىء بدقة ، يصعب أن يراه أحد ، فقد كان يرتدى ملابس غير تقليدية ولا تظهر إلا عيناه ، وهما فى الأصل خرزتان ، ولابد أن رأسه الصلعاء رجحت اختياره .

اختفى التروسيكل الذى أحضر البضاعة ، محسوب فتح ربع ضلفة شيش ليتابع توجيهاته

بالهمس والإشارة ، وبدون توجيهات كان كل شيء يتم طبقا لخطة دقيقة يحفظها الجميع عن ظهر قلب ، ويتحركون وفقا لها آليا وبسرعة .

ما أن تحرك التروسيكل حتى كان قراميط ينزلق من سيارة الشرطة إلى الحديقة ، والقوة الكبيرة تمنع وصول الهواء إلى الڤيلا ، الباب الداخلى مفتوح ، ومحسوب يجلس فى الردهة ، وصفية الخادمة تضع أمامه الشيشة . . قال له دون أن يرفع إليه نظراته ، وبكل هدوء وثقة .

– تفضل يا باشا . . خذ لك نفسين .

– نفسين فقط .

– خذ ما تشاء . . الليلة مزاجى عال ونفسى أكون أكرم من كل مرة وأعمل معك الواجب الذى تستحقه .

تنهد الضابط وابتسم ، وقال لمحسوب :

– أخيرًا . . تقابلنا .

– أخيرًا !. نحن نتقابل كل يوم . . أنت لا عمل لك إلا أنا . . أنا عملك . . أنت معين

خصيصا من أجلى .. مرتبك تحصل عليه لأنك تعمل مراقبًا لى .. أنت خريج كلية الشرطة قسم محسوب ..

يضحك قراميط ضحكا عاليا أكثره حقيقى من قلبه ..

بداخله يستشعر انتهاء الغمة وانقشاع القلق ، وثانيا لأنه سعيد بانتصاره على محسوب وهو خصم وقح وعنيد وصعب وفى غاية الذكاء .. سوف تكون لذلك نتيجة طيبة ، وستبلغ لوزير الداخلية شخصيا ، لأن محسوب كان يوزع فى عدة محافظات . منها القاهرة والجيزة والقليوبية والشرقية والغربية . مسألة مؤرقة جدا وعلى درجة عالية من الخطورة .

فى الوقت نفسه كان معجبا بكلام محسوب وتعليقاته الطريفة ، ولاحظ أيضا وربما لأول مرة أنه بالفعل ينفق كل وقته وفكره فى تتبع أخبار محسوب .. ويحلم به أيضا ويخطط له ، وكثيرا ما اكتشف فى حالات الهدوء أنه على المكتب يرسم صورته ويخطط ملامحه ، أو يكتب اسمه عدة مرات

ويسود الخط ويظلله ، وقد يرسم صورته بملامح أكبر مما هى عليه . . وأحيانا يتصوره داخلا عليه ، يسلمه الحشيش ويعترف . . وأحيانا يتصور أنه يدخل عليه شقته ويطلق عليه الرصاص ، وينادى الضابط على من ينقذه ، أو يطارد المجرم فلا يغيثه أحد . . كابوس كبير وثقيل . . أخيرا توشك أستار نهايته على النزول . . ياه .

قال لمحسوب :

- مبروك يا معلم محسوب .
- الله يبارك فيك . . صدر قرار تعيينى معك فى الشرطة . . شكرا . . لا أستسيغ هذا العمل حتى لو مدير الأمن .
- خبر أهم .
- ما هو ؟
- سترتاح منى .
- هذا فعلا خبر يستحق التهنئة ، بل يستحق أن أذبح عجلا .
- سترتاح منى وأرتاح منك .

- ما معنى كلامك ؟ لا أفهم .

- سترتاح البلد كلها منك .

رمى محسوب الشيشة واحتد صوته وعلا وهو يقول :

- طلباتك يا باشا قبل أن أطلب المأمور .

فجأة تغيرت سحنة قراميط وصرخ :

- أنت تهددني يا كلب .

وسرعان ما أسرعت دقات قلب قراميط خشية أن يكون محسوب ، مسلحا فأسرع يقول لرجاله :

- فتشوه .

هجم على محسوب ستة . فتشوه ، لم يتركوا فيه موضعا دون أن تمتد إليه أيديهم .. لم يجدوا شيئا يهمهم ..

- تمام يافندم .. جاهز .

- فتشوا الڤيلا .. أريد عاليها واطيها .. لا تبقوا فيها قالب طوب واحدًا .

تنحنح محسوب .. قال قراميط :

- سنقضى اليوم كله هنا .. على مهلكم ..

لا تتعجلوا . . اليوم عطلة فى المديرية بمناسبة يوم محسوب .

انتشر الجنود فى الغرف والممرات ، فى المطبخ والحمام والشرفات وفى الحديقة . . فحصوا الأسوار والأشجار والعصافير والأعشاش . . قلبوا كل سجادة وفتحوا بطن كل كرسى ، ونظروا فى كل نجفة وكل وعاء ومرتبة ووسادة . . نقبوا فى الثلاجة والبوتاجاز والتكييف والتلفزيون والسندرة ، وصعدوا إلى السطح .

- لم يبق غير حجرة النوم .

- فتشوها .

- مغلقة .

- اكسروا الباب .

هب محسوب ومد يده إلى رأس نفرتيتى العاج القابعة فى ركن المكتب وسحب منها مسدسًا وهو يقول :

- من يلمس الباب سيرقد إلى جواره .

قال الضابط وقد فوجئ بالوضع الجديد :

- محسوب .. ستورط نفسك .

اتسعت عينا محسوب ، وهو ينظر إلى قراميط حتى بدا بالفعل مرعبا ، وقال :

- أنت ستضيع عمرك وعمر من معك .

- محسوب .

- لن يخطو أحد خطوة واحدة .

تزايد شك قراميط .. دارت تروس عقله بشدة بحثا عن حل لا يضر المهمة والأرواح .. رأى أن يعمل على تخفيف حدة التوتر التى أشعلها محسوب ، فقال بهدوء :

- لماذا هذه الحجرة بالذات ؟ أنت شجاع وشريف ، ولا علاقة لك بالسموم ، فلماذا تقلق من فتحها ؟ .. افتحها أنت .

هدأ محسوب قليلا وقال .

- أنا لا أخشى شيئا .. كل ما هنالك أن زوجتى حامل ، وترقد فيها متعبة منذ الأمس وكان الدكتور عندها منذ قليل .

بمنتهى الرقة قال الضابط :

- لا . . ألف سلامة . . وهل هذا يجعلك تثور كل هذه الثورة ؟ بالعكس لابد أن نطمئن عليها ونعتذر عن الإزعاج الذى سببناه . والخطأ فى الحقيقة خطأك . . وكان عليك أن تبلغنا بذلك منذ أول دقيقة .

- شكرا . . أرجوكم إذن . . .

أسرع الضابط يقول : عرفة . . حسين . . انتهى التفتيش .

- متأسفون يا محسوب . . مرة ثانية . . ألف سلامة .

استداروا جميعا للتحرك نحو الباب ، إلا أن الضابط تحول فجأة وسأل محسوب :

- هل هذا السلاح مرخص ؟

- طبعًا .

- كم ميللى ؟

- تسعة .

- أظنه أصغر من تسعة .

- والله تسعة .

- ممكن . . . ؟

مد يده بالمسدس ، أخذه قراميط وقلبه بين يديه وهزه .

- نعم . . تسعة .

ثم بحدة يعلنها صوت صارخ ينبثق من صدره المغلول :

- أمامى . . افتح باب الغرفة ، لن نخرج إلا بالمعلوم .

- ما المعلوم ؟

- المعلوم هو المعلوم .

صرخ وهو يضع مسدس محسوب فى جيبه :

- افتح .

تقدم محسوب وطرق على الشراعة الزجاج :

- افتحى يا أم انشراح . . حضرة الضابط يود الاطمئنان عليك .

لحظات قليلة وفتحت الباب زوجة محسوب . . امرأة جميلة جدًا ، ممتلئة الجسد قليلا ، ربما بسبب الحمل .

- ألف سلامة يا هانم . . متأسفون للإزعاج . .
خطوتان لو سمحت .

تقدمت عدة خطوات وهى تتوجع وتمسك بجنبها . أشار الضابط للقوة ، فدخل عدد من الجنود . . كانت طفلة صغيرة نائمة بعمق واسترخاء . . فتشوا الغرفة بدقة . . نقلوا الطفلة من مكانها ليبحثوا تحتها .

- تمام يافندم . . بيضاء .

- لا . . هذا تفتيش عيال . . عودوا مرة أخرى . . ملاءة السرير أريدها خيطا خيطا .

عادوا يفتشون ويقلبون كل شيء حتى أصابع وعلب الماكياج وملة السرير والأحذية وكل شبر فيها ، وعادوا يعلنون عدم وجود شعرة من الممنوعات .

- متأسفون للإزعاج يا هانم . . متأسفون يا سيد محسوب .

استدار الضابط للمغادرة .

- شرفت يا حضرة الضابط .

- يشرف مقدارك .

توقف من جديد قائلا .

- طلب بسيط . . بسيط جدا .

تنهد الزوجان :

- تفضل .

- الوحيد الذى لم يتم تفتيشه . . الهانم .

- ماذا ؟

- بسيطة . . لا تقلقا ولا تحملا همًّا .

- مستحيل .

- ندخل نحن الثلاثة الغرفة وأنت يا محسوب الذى تقوم بالتفتيش . أظن عدَّانى العيب .

تقدم محسوب من الضابط حتى كاد يلتصق به ، بدا طويلا ضخما بالنسبة لضابط طويل القامة ، وهمس وهو يأكل الكلمات وأسنانه ، ويصوب نظرات شرسة ومتوعدة إلى وجه الضابط :

- لو لم تتحرك الآن خارج الڤيلا سأقتلك بيدى .

- لن أتحرك يا محسوب إلا بالمعلوم .

- أى معلوم يا مجنون ؟

- المعلوم الذى تعرفه .

- كلمة أخيرة . . اخرج قبل أن أقتلك .

تراجع الضابط خطوات إلى الخلف وقال :

- امسكوه .

أسرع محسوب إلى الضابط وأمسك برقبته ، ودفع به إلى الحائط . أسرع الجنود ليضربوه . أشار لهم الضابط كى يتوقفوا .

فكر أن يطلق الرصاص لكنه تراجع . . ظل محسوب ممسكا بالضابط من رقبته وجره إلى الخارج ، والجنود يحيطون به ولا يعرفون كيف يتصرفون . . ألقاه على السلالم الخارجية وأغلق باب الڤيلا ، تحامل الضابط على نفسه وجمع قواته وغادر المنطقة ، وهو يثق أن المعلوم داخل الهانم زوجة محسوب .

كان ذلك صحيحًا . . لكن الذى لم يكن يعرفه الضابط قراميط أن محسوب خصص رجلا لمراقبة تحركاته هو ، ورجلا لمراقبة الرجل الذى يراقب محسوب .

(٣)

صرخ الضابط :

- علقوه .

استنفر أربعة من العساكر كل قوتهم ، وقلوبهم تضرب صدورهم بعنف خوفا من محسوب ، لكنهم صدعوا للأمر كما تعودوا ، وتعلموا وحفظوا تراث الشرطة العتيد .. هجموا عليه بنفس الطريقة التى تعودوا عليها ضد عتاة المجرمين من ذوى الأجسام القوية .. كل اثنين بصعوبة شديدة يتعلقان بذراع واحدة من ذراعيه . الأربعة يقبضون على الذراعين بالأذرع والصدور والأكتاف والبطون والأسنان .. وما هى إلا لحظات حتى وجدوا أنفسهم يطيرون جميعا فى الفضاء ويصطدمون بالجدران ويتعثرون فى الكراسى الخشبية ويرتطمون ببعضهم وبمنضدة جانبية والكنبة الطرية ..

لم تتح لهم الفرصة كى يفكروا باندهاش فى

السبب الذى استطاع به محسوب دون جهد واضح أن يلقى بهم بعيدا ، وهل يا ترى السبب أنهم لم يتناولوا طعام العشاء حتى الآن . . أو ربما نقصت أوزانهم بسبب الحملات الكثيرة التى قاموا بها فى الأيام الأخيرة . لكن المؤكد أن محسوب شخص ليس قابلا للعطب ، وأنه قوة غير عادية .

انشغلوا بالنهوض والتماسك والاستعداد لهجمة جديدة ، يجب أن يستخدموا فيها أساليب جديدة . . كأن يتمكن أحدهم من الإمساك برقبته من الخلف والموت عليها، فيؤدى هذا إلى شل حركته أو تخفيف العبء على المهاجمين الآخرين ، مع ضربتين مؤثرتين فى مناطق حساسة ، ومن ثم تنتهى المهمة وبينما كان كل منهم يبحث وينقب مدركا حجم المسئولية وأهمية المعركة فى الحفاظ على شرف الشرطة ، وقدسية مهمتها رأوا ما لم يروه من قبل . محسوب يقذف من فمه بصقة فى حجم حمامة ، طارت وغطت وجه الضابط ، أعقبها قوله :

- من الذى تريد أن تعلقه يا عرة النسوان ؟!

بقى الضابط لأكثر من دقيقة مذهولا مثل جنوده الذين لم يستطيعوا الاقتراب من محسوب ، بحجة انتظار الأوامر ، وصرفوا كل جهدهم لمنع أنفسهم من الضحك على منظر قائدهم المعروف بالشجاعة والقوة .

بدأت الغرفة تهتز تحت وقع القلوب المضطربة والمستنفرة بشدة ، وقد بدأت عواصف هوجاء من بعيد تدمدم بثقة .

الصمت ساد . . العيون تطلق الشرار . . حتى عيون المسئول الكبير الذى يقبع فى صورته المعلقة على الجدار محاطا بإطار ذهبى لا يفارقه ، كانت تتأمل من يقفون أمامه على قطع من الجمر ، وتسرى حرارتها حتى أطراف الأدمغة وترمى لظاها على ظهور الأيام القادمة .

رأى الجنود البصقة وقد غطت وجه الضابط تماما . . حاول كل منهم أن يتذكر يوما رأى فيه مثل هذه البصقة . كانت الإجابة القاطعة بالنفى . سال بعضها من نصف وجهه الأعلى واستقر على شاربه . .

وهو أجمل وأكبر شارب فى البندر ، بقيت بعض الخيوط معلقة بالحاجبين والرموش ، ومتدلية أمام عينيه بحيث تلامس أعالى خديه ، كأنها بدلة راقصة ، أو يشمك يرتديه رجل لأول مرة ، والأرجح أنها ستائر مفصلة للعيون ، تحميها وتمنع أن يتعرف الآخرون على ما يخامرها من شعور ، لولا أنها لم تستطع أن تحجب الشرر والغضب ومرارة الفجيعة .

احتاج الضابط أن يوقف كل أجهزته التى يمكن أن يتحكم فيها وفى طليعتها أنفاسه .. امتنع تماما عن التنفس وكأنه كان يقصد أن يخزن الثورة ويعتقها فى براميل رئتيه ، كما أغمض عينيه لدقيقة ، وتوقف عن الحركة تماما فى أقوى مثال يدرس من تمارين اليوجا ، حيث تشارك الروح الجسد فى منظومة الرفض والاحتشاد .. الصبر والمقاومة .

أخيرا ، امتدت يده إلى زر على جانب المكتب لا يراه أحد ، وما هى إلا ثوان حتى اقتحم الحجرة أربعة عساكر .. انضموا إلى الأربعة المذهولين ، وطرقع الضابط وسطاه بالإبهام ، فانقضوا على

محسوب .. قاومهم فكبحوه ، قاوم وحاول ، وهزهم هزات عدة لكنهم كانوا متشبثين خوفا على مهابة الشرطة وانتقاما للستائر البصقية المعلقة فوق وجه سيادة رئيس المباحث .. مضى يدفعهم وهم يتأثرون بدفعاته القوية التى لا تهدأ . يروح بهم ويجىء ، لكنهم لا يمكنونه أبدا من الإفلات ، ثم بدأت عملية ربطه بالحبال من قدميه ، وعلقوا الحبل بجنش حديد فى سقف الحجرة ، ومن ثم رفعوه ، قدماه تقترب من السقف ورأسه يتدلى فى مواجهة صدورهم ، وفمه يسب الجميع ويلعنهم ويهددهم .

يبدو أن الضابط تعهد لنفسه ألا يمسح لعاب محسوب من فوق صفحة وجهه والمعلق بعضه برموشه إلا بعد أن يرفع محسوب كالبهيمة المذبوحة والمتأهبة للتمزيق .

عندئذ امتدت يداه إلى ورق التنظيف الأبيض ليمسح الصفعة البصقة التى لا يظن أنها حدثت لضابط آخر على طول ما سمع ، ولم ترد فى أى كتاب من كتب أعداء الشرطة .

فى هذه اللحظة . . أسرع إليه جنديان وقالا دون اتفاق وفى نفس واحد .

– عنك يا باشا .

اتخذ كل منهما جانبا وشرعا ـ سحان الوجه الأبيض الذى يشف جلده عن بحيرة الدماء والحيوية المتدفقة تحت مساحة الوجه .

لاحظ الجنديان أن الوجه والملامح المخلوقة بحساب ودقة وجمال لم تمنع الغضب المتفجر من كل سنتمتر ، والأعصاب النابضة فى توتر تحت أيديهم ، وقد لمسا أيضا صدره الذى ينتفخ حتى يعلو . ويعلو . كاشفا حجم الثورة التى تمور به ، والقلق على محسوب الذى قد يتعرض لأذى من الضابط المهان ، لكنهما مرة أخرى حرصا على مهابة الشرطة . . انتهيا دون اتفاق مسبق إلى أن الموت أقل مما يستحق محسوب وأمثاله ، لا بسبب المخدرات ولكن بسبب اعتدائه على حضرة الرائد رئيس المباحث .

كان كل منهما يعمل باهتمام فى تنظيف نصف

الوجه الواقع فى اختصاصه وتحت مسئوليته ، واحتاج الشارب إلى عمل مشترك ، بذل الجنديان فيه مجهودا خاصا وتدقيقا كثيرا . . لتخليص شعيراته السوداء المدببة من البصقة وآثارها التى بدت كما لو أن محسوبًا قد مزج بها مادة لاصقة .

جاء جندى ثالث بالفوطة والصابونة ، وتقدمه الضابط إلى دورة المياه فغسل وجهه ثلاث مرات على الأقل ثم جففه وخرج .

أشعل سيجارة وجلس إلى مكتبه وأشار إلى الأربعة الجدد بالانصراف ، وإلى القدامى بإغلاق الباب . . طرقع وسطاه بإبهامه فسحب كل جندى من الأربعة الأصليين حزامه الميرى الثقيل السميك ومضى يضرب به المعلق على صدره ورأسه منتظرا أن يسمع صوتا يند عن المضروب ، لكن شيئا من ذلك لم يحدث .

تنهد الضابط من عمق صدره ، ووضع ذقنه على راحة يده رافعا مستوى رأسه ناظرا لمحسوب فى شرود ، ثم نفث دخان سيجارته وتابع الدخان الصاعد

أمام ناظريه ، وبداخله جسد محسوب ، يحتوى فى غلالة يمتزج فيها الغبار والحلم والموت والظلام والغموض والانكسار .

مضت أسنانه تأكل بعضها وهو يثقب محسوب بنظراته المتوعدة ، ثم سحب من السيجارة أنفاسا متلاحقة قَصّرت عمرها واستبقى بشدقيه دخانها ، ومد يده إلى المنفضة فدفن بقاياها بقوة ثمَ أطلق الدخان طويلا كثيفا وأفقيا فى اتجاه محسوب ، لكن ماسورة الدخان قبل أن تلمس الكبير المعلق كانت قد تخلخلت وانتشرت فى الغرفة وغطت الجميع حتى الضابط نفسه ، ثم اتخذت طريقها نحو النافذة .

تنهد من جديد وقام إلى محسوب فأمسك بجسده وأداره عدة دورات ،وصفع الوجه عدة صفعات قوية تفيض غضبا ، ثم عاد إلى مكتبه وانحنى بيديه عليه ، سكن لحظات كمن يفكر لا يزال فى الإهانة البالغة التى ألحقها مواطن عادى يشتبه فى إجرامه بضابط شرطة كبير ، وربما كان يفكر فى زوجته التى غادرت بيتها رافضة العيش معه ، وربما كان يفكر فى الترقية

الجديدة التى كلما حان موعدها جد فى الأمور ما يؤخرها . . وربما كان يفكر فى الأسباب التى لم تمكنه من أن يقبض على محسوب متلبسا بالاتجار فى المخدرات . . عشرات البلاغات وعشرات الشهود ، ولم يحالفه الحظ فيلحق به وبين أحضانه جريمته . . مع أنه على ثقة بأن محسوب هو أكبر موردى الصنف والأصناف كلها للمدينة ، وكل من يتعاطى ويعجبه الصنف يدعو لمحسوب ويذكره بالخير وأنه لولاه لمات الشباب كمدًا وحسرة من سوء الأحوال .

استجمع قوته وصبها فى قبضته اليمنى وهوى بها على رقبة محسوب ، ولما فتح فمه صب فيه بصقة كبيرة مختزنة ، صدرت عنها رائحة سجائر معتقة وبائسة .

أشار الضابط للعساكر كى يخرجوا ، ويتركوه ليقوم بالتحقيق مع المتهم ، طلبوا أن يبقوا معه . . رفض . . خرجوا وأغلق الباب وراءهم .

سحب الضابط حزامه ومضى يضرب محسوب بتؤدة فى جميع أجزاء جسمه حتى تمزق الحزام

وانخلع حديده ، ثم علا الإيقاع وازداد التوتر فمضى يضرب بالأدوات المكتبية . . الدباسة . . الخرامة . . دس فى جسده جميع دبابيس الإبرة حتى انثنت . .

ضربه بسكينة الورق والمنفضة وأشعل فى جسمه كل عيدان الكبريت وأطفأها فى لحمه ، كل عود فى موضع .

فك العقدة التى تمسك بمجموعة الأحبال وترك الجسد يهبط بحيث يقترب الرأس من الأرض دون أن تلمسها الكفان المتدليتان ، وفتح السروال وأخرج عضوه وبال على وجه محسوب المحتقن .

تلفت حواليه يتأمل الأشياء بالغرفة ، فلم يجد فيها ما لم يستعمل غير صورة الرئيس ولوحة « الشرطة فى خدمة الشعب » ، سحبهما الواحدة تلو الأخرى وحطمهما على الجسد المعلق ، نفذت شظايا من الزجاج بالجسد المحطم ، بدا أن الرجل المعلق أصبح فى حالة لا تكشف عن أى إحساس أو تأثر بما يجرى له . . لم يعد قادرا على أن يغضب من الضابط الذى يزلزله جنونه ، بل إن الرجل لم يعد قادرا فيما

يبدو على أن يقيّم غضب الضابط وتجاوزه الحدود .

تهاوى الضابط على الكنبة الجلدية . . شعر بتعب شديد وتفكك فى بدنه وعظامه وثقل فى جفونه . . خامره شعور بالرضا عن نفسه ، لأنه لم يؤدب محسوب فقط لاتِّجاره فى المخدرات ، ولكنه انتقم لجهاز الشرطة ، خاصة أنه مغرم جدا بالعمل البوليسى ويرى فيه أقدس المهام على الأرض كما علمه رؤساؤه .

قرر ألا يحرر له أى محضر ؛ فليست هناك قضية ، وعزم أن يتنازل عن حقه الذى يمكن أن يدفع محسوب ثمنه غاليا ، ولو قال الضابط أن هذا المجرم أهانه أثناء تأديته مهام وظيفته الرسمية فى الحفاظ على الأمن وأمام الجند وقاوم التفتيش وسخر منه ، وبصق فى وجهه لكان ذلك كفيلا لو بلغ المأمور أن تقام دعوى عليه ليحبس على الأقل خمس سنوات .

عزم أن يتنازل . تكفى العلقة التى نالها فهى قادرة على أن تعلمه احترام النظام والمسئولين عن النظام ، وربما تدفعه ليهجر تجارة الزفت .

- ابن الكلب متزوج واحدة تنقذ صاحبها من حبل المشنقة إذا تشفعت له .. كيف يتسنى لمثل هذا الرجل الجربوع أن يحصل على هذا الجمال ؟! .. ولا يبقى لنا إلا نماذج عجيبة .. امرأة سخيفة ومملة وسليطة اللسان لمجرد أنها ابنة مدير الأمن السابق .. سيادة اللواء حمدى سواحل .. طظ يا سيدى .

عاد يتنهد ويستشعر مزيدا من التحلل كأنه قطعة من الثلج تذوب بسرعة تحت الحرارة ، وتصبح مجرد بقعة صغيرة من المياه الساكنة .. أغمض عينيه ونام ..

(٤)

- حضرة الضابط هشام قراميط .
- نعم .
- شخص لا تعرفه لكنه لا ينسى فضلك ، ومواقفك عندما كنت تعمل فى قسم الدرب الأحمر .
- اسمك ؟
- لا يهم .
- وما المهم ؟
- بلغنى إنهاء خدمتك .
- . . .
- أود رد الجميل .
- أشكرك
- عفوًا . . ما رأيك ؟
- فيم ؟
- عندى واسطة تعيدك .

- شكرًا .
- بنت عمى زوجة لمسئول كبير .
- شكرًا .
- ماذا بك ؟
- لا أعرفك .
- ليس مهما .. ماذا يضيرك ؟
- ....
- هل انتهى الحديث ؟
- هل تعرف بيتى ؟
- أعرف مكانا قريبا منه .
- ما هو ؟
- الحمامة البيضاء .
- أعرفها .
- حدد الموعد .
- تليفونك وأنا أحدد وأتصل.
- خائف .
- ..
- ما الذى يمكن أن تخسره ؟

- طال صبرى .
- أنا متبرع ، أرضى ضميرى فقط .
- كلامك غامض .
- عرض كريم .. جزاؤه سوء الفهم .
- الساعة السادسة مساء غد .

* * *

لم يكن هشام يتصور أن هناك امرأة بهذا الجمال ، سيدة أنيقة للغاية ، منابع الإثارة بها كثيرة .. تقاسيم جسدها مرعبة برغم القليل من البدانة .. ملامحها دقيقة وفاتنة .. الأنف الشامخ .. الخدود المشتعلة .. التسريحة المعقدة للشعر الغزير والتفافها حول الرأس مع تشكيلات جانبية منسجمة مع الوجه الأبيض المشرق والعنق الدسم .. لفت نظره بقوة استدارة الكتفين العاريتين المتوجهتين بثقة نحو هضاب الصدر الممتلئ بدعوات صارخة . تمنى أن تتخلى عن النظارة العسلية لدقائق ليطالع العيون فلابد أنها ساحرة .. سوف ينفذ فورا ماتأمر به .

كانت السيدة الجميلة ، قد قررت أن تمضى فيما

عزمت عليه بهدوء شديد وتفنن . .

سيطر عليها إحساس غريب بأهمية أن تتسلى بعض الوقت قبل أن تخلع قفازها وترميه فى وجه أحد .

تجولت فى نفسها رغبة شيطانية كى تلعب دورا جديدا ، وتقضى وقتا وحشيا ، وترسم لوحة يعتقد البعض أنها ليست من بنات أفكارها ، لكنها صممت أن تستعرض قدراتها ، وتطهو لنفسها طعاما طيب المذاق . . طعاما جذابا ولافتا ، تصل درجة الإعجاب به حد السقوط فيه .

طلبت من الكوافير أن يبذل أقصى قدراته ليعدها لمسابقة ملكات الجمال والأناقة . . دهش الرجل فى البداية . . عاد ينظر إليها دون كلمة . . كانت جميلة فعلا . . لكن أن تشترك فى مسابقة عالمية لملكات الجمال مسألة تحتاج إلى مراجعة . . على الأقل لأن اللحم ضعف المطلوب . . حوصر بالتحدى الذى تفجر فى روحه فجأة وملك عليه نفسه . دخل الحمام وبقى فيه نحو عشر دقائق يتأمل كعادته ، ويرسم ويبدع التصميمات الجديدة لتسريحات طالما سحرت

العيون وأسرت القلوب ، ولفتت الأنظار حتى كتبت عنه الصحف ، وما كتبته منشور على حائط كامل مخصص له . خرج وعاد ينظر إليها إلى أن قال :

- ألف جنيه ، غير أتعاب الرياضى .

قالت دون تفكير : ونصف .

قال : سبع جلسات .

سألت : المدة .

قال : شهران .

قالت : كثير جدا .

قال : ستون يوما بالتمام والكمال .

عندما وقعت عينا هشام عليها ، ورآها وهى تمسك بالمبسم الطويل بينما ينتهى بسيجارة لم تشتعل بعد ، أدرك أنها ليست أقل من حرم رئيس الوزراء .

همس سميح فى أذنه وهو يشير إلى طقم الحراس الذين يختبئون وراء الأشجار . . أربعة موزعون على الأركان غير رئيسهم الذى يمسك بالمنظار فى الدور الثانى من المبنى الرئيسى بينما هى فى الشمس تجلس بأناقة واعتداد تحت مظلة ، والنادل يقترب ليضع

كوب عصير المانجو ، وفنجان القهوة المضبوط ، وعيناه ليست مع أكوابه ، بل إنها تتسلل إلى الفاكهة البشرية التى تملأ المكان كله بالعبق والسحر والبهجة .

- الضابط هشام يا هانم .

بإصبعها دون أن تنظر إليه ، أشارت كى يجلس . . دق قلب هشام وجلس وهو يعيد حساباته ، وقد بدأ يتضاءل وإن لم يمنعه ذلك من إرسال النظرات إلى صاحبة النظرة العسلية الساكنة فى حضن الإطار الأبيض ، فتزيد الوجه المشرق جمالا وتألقا .

لم يكن ثمة صوت فى حديقة النادى . . كان الكون كله ينصت لما تنوى الجميلة قوله أو فعله ، ولم تكن بعض العصافير تعرف طقوس اللعبة ، ولم يكن أحد قد أبلغها باللقاء المهم . لم يقترب هاجس الخوف من قلبها ، وبمنتهى السذاجة والعفوية ، مضت تشدو وتتراقص حول مظلة الهانم ، عَبَر هاجس شارد لدقيقة رأس الضابط المفصول بأنه ربما . . ربما . . عشر جزء من ربما رأى هذ الوجه من

قبل . . لم تمكنه النظرات المختلسة من زيادة أجزاء ربما .

بعد لحظات . نهضت الجميلة وسارت بأناقة تختار خطوتها وتوقع بها على الأرض توقيعات موسيقية جذابة وشجية ، تضطر الجميع كى يضبطوا إيقاعهم ونبضهم معها . . فى أعقابها مضى سميح وأشار لهشام كى يتبعه ، وقد التقطت عيناه وأذناه حركة طاقم الحراسة المسلح وهم يهرولون من بعد ، وعيونهم وكل حواسهم تتابع الهواء الذى يحيط بالجمال السابح فوق الأرض . . أخرجت المحمول وتحدثت فيه دون أن يسمع أحد ما قالت .

أسرعت إليها السيارة الفخمة مع نهاية المساحة الخضراء وبداية الأرض الرملية فيما قبل البوابة الكبيرة . . فتح لها السائق الباب ودفع سميح بالضابط إلى المقعد الأمامى ، أغلق السيارة ، ثم أسرع ليركب مع بقية الحرس فى السيارتين الأخريين اللتين انحرفتا إلى شارع جانبى وانطلقت الحمراء الفارهة وحدها تركض وتشد إليها العيون والانتباه .

ظلت السيدة التى مالت إلى الخلف ليستقر ظهرها بكبرياء على الكنبة الخلفية العريضة واضعة ساقا على ساق ، تنظر إلى رأس هشام . .

بعد نحو ربع ساعة ، قالت :

- ستبدأ من الصفر .

- . . .

- هيه .

- صعب .

- المهم نعيدك للخدمة .

- عاجز عن الشكر .

- . .

مضت تنظر إلى مؤخرة رأسه بينما السيارة الفارهة تشق الطريق العريض خارج المدينة ، إلى أن بدأت تصعد أحد الجسور الطويلة العالية فوق النيل ، وعندما أصبحت السيارة قبل منتصفه تقريبا ، شرعت تهدئ من اندفاعها ، ليتمكن عشاق النيل والمناظر الطبيعية الآسرة من التأمل واستنشاق هواء مغسول بمياه النهر النقية . . عندئذ قامت السيدة التى كانت

تلوك فى فمها فص لبان تُسمع له بين الحين والحين طرقات حادة ولذيذة بفتح حقيبتها الحمراء اللامعة وإخراج لفة عبارة عن منديل يلتف حول مسدس رمادى . . أطلقت رصاصتين على رأس هشام ، والسائق فى طريقه ثابت اليدين لا يتحول عن الطريق المستقيم الممتد أمامه بلا نهاية .

كان فى البداية قد اهتز اهتزازة خفيفة تتناسب مع ما حدث حتى لو كان يعلم بأمره مسبقا .

انتفض جسد الضابط وحاول أن يلوى عنقه ويثقب فى ذاكرته أى صورة عن الجانى ، لكن رأسه مالت على ظهر مقعده فى استسلام . . شعرت السيدة أن الرأس بحاجة إلى المزيد من المسامير التى يجب أن تدق فيها حتى تتشبث بقوة فى زورق الموت ، فأطلقت رصاصتين أخريين ، وانتفض الجسد من جديد مؤكدًا أنه أصبح كما تتمنى الهانم الجميلة .

بعد دقائق أوقف السائق السيارة وخرج منها ، وسبقته السيدة . أغلق جميع أبوابها وألقى المفاتيح فى النهر الكبير المتجه بحماس نحو الشمال .

أسرعت السيدة إلى الطريق العكسى ، ولحق بها السائق . أوقف سيارة أجرة . . بعد ثوان لم يكن لهما على الطريق أثر ، وتكفل الظلام بإخفاء كل شىء . . تقريبا .



(٥)

كانت لحظات غريبة ومدهشة وغير مفهومة ولا يستطيع عقل انشراح أن يستوعب تماما كل ما جرى ويجرى . . ينتقل من موضعه عدة مرات . . لا يستقر . . سطوح ساخنة وباردة . . دافئة ومثلجة . . هل هى جالسة أم واقفة . . نائمة أم فى غيبوبة ؟ . . فى الدنيا أم فى الآخرة . حية أم ميتة . . فى علم أم فى حلم . . هل من عاشت معهم أهلها أم لا ، كاذبون أم صادقون ؟؟ وإذا كانوا كاذبين ، فما الذى فى الدنيا يستحق أن يكذب الإنسان لأجله . . من هى التى تقف أمامها الآن . . أهى أمها حقا ؟! . . وأين كانت ؟ وماذا يعنى ما قالوه ، أنها كانت تعيش فى بلد عربى ولا تستطيع الحضور لرؤية وحيدتها ولا أن ترسل خطابا ، أو تبعث بكلمتين مع أى قادم . . لا . . لا . . لا .

خرجت شافية أم انشراح من السجن ، وتوجهت

مباشرة إلى ابنتها عازمة على أن تتقبل منها أى انفعال .. لن تفعل أى شىء إلا أن تحاول تعويضها عن سنوات حرمانها وعذابها .. جاءت فى الوقت المناسب وسوف تجهزها جهازا لم تجهز به غيرها فى طول البلاد وعرضها .

عندما علم العمدة بأن أم انشراح وصلت وأنها تمتلك عمارة وفيلا غير أموال كثيرة ، قرر أن يخطبها لنفسه ويخطب ابنتها لابنه الذى طلق زوجته مؤخرا .

قررت شافية أن تبتعد عن بنها وعن ذكرياتها فيها ، رأت أن تعيش فى القرية التى تعيش فيها ابنتها والتى عاش فيها زوجها الحبيب محسوب .. سوف تسير على الأرض التى كان يمشى عليها وتتنفس الهواء الذى كان يتنفسه يوما ما .. وتجاور أخاه وأهله ، ويمكن أن تشترى أرضا تزرعها حديقة وتستمتع بعالم الريف الذى تجهله تماما .. هو الأنسب لها الآن حيث الأمان والهدوء والرضا ورخاوة الأعصاب وترك الهموم . قبلت عرض العمدة .

ابنه منصف طلّق زوجته ابنة عمدة فرسيس التى

أجبره على الزواج منها بسبب ما سيحصده من الأفدنة .

غضب العمدة من تصرف ولده ووبخه فلم يجد الولد بُدًّا من القول :

- جرب وعش معها أنت ، وبعد يومين تقول فى داهية هى وأملاكها ما دام الطبع والشكل طين . .

رحبت شافية بمنصف ابن العمدة ؛ فقد وجدته وسيما طيبا ومتعلما . درس التاريخ بالجامعة ، لكنه فضل العمل فى تجارة السيارات مع أحب أصدقائه .

التفت الهدايا حول انشراح من أمها ومن منصف الذى تعلق بها جدا بعد أن رآها .

قالت انشراح : لابد أن يخرج هلال من اعتكافه بأى وسيلة .

أرسلت إليه ناجى ابن جارتها . . ولد ذكى وأمين . طلبت منه أن يقول له : لو لم يأتها الآن ستشعل فى نفسها النار .

قابلته فى بيت والدته وتعانقا طويلا وبكت كثيرا .

طمأنها على المستقبل بإذن الله وطمأنها على سرعة تصرفه . . وبسط أمامها خطته . . وافقت وصبرت .

يوم بلغه النبأ قرر العمدة أن يقيم ليلة لأهل الله . . ليلة فرح لا مثيل لها .

ذبح الذبائح وأقام الولائم واستدعى الشاعر ودعا أهل البلد ، طلب منهم جميعا أن يتجمعوا فى الجرن وألا يبقى أحد فى داره حتى الحامل تحضر والنفساء والمريضة تُحمل إلى هناك والكفيفة ، لأن الرقص والغناء لن يتوقفا إلا إذا أشرقت الشمس ، وإذا لم تشرق فلن يتوقفا أبدا . . العمدة شخصيا سيرقص وسيطلب أشهر راقصة لتحيى الليلة .

كان السؤال الملح والصارخ الذى تنطلق به الألسنة :

– ما السبب فى ذلك وما السر ؟ هذا لم يحدث أبدا .

غادر هلال منذ الصباح الباكر وسلم نفسه لمديرية الأوقاف ، التى وافقت على انتقاله إلى المكان الذى يختاره ، فاختار مسجدا كبيرا بالإسكندرية .

سافر فى اليوم نفسه بعد أن أطلع صديقه بيومى على كل تفاصيل خطته . طلب منه أن يبلغ كل من يلقاه بأن الشيخ هلال طلب نقله إلى مسجد جديد فى مكان بعيد لا يعلمه . حمَّله مسئولية سلامة انشراح إلى حين لقائها وعم بدوى لعقد القران بعد أسبوعين .

لاحظ العمدة أن كثيرا من الأهالى لم يحضروا الحفل ، فمر عليهم ومعه أعيان البلد وشيوخها وخفراؤها ، يلحون فى دعوتهم للمشاركة فى الليلة التى لا تتم إلا كل عشرات السنين . . وأن الناس أصبحت فى أمس الحاجة إلى الفرح والمرح والبهجة .

سأل البعض عن المناسبة أو السبب .

فأجابهم العمدة : بدون مناسبة وبدون سبب .

- لابد هناك سبب .

- إذن السبب هو مناسبة طهور زغلول .

- ومن زغلول هذا ؟

- حمارى .

ضحك البعض وتساءل آخرون فى امتعاض :

- وهل يصح أن تسمى الحمار زغلول ؟
- كان اسما لخالى وهو الآن أعز أصدقائى .
- يقال إنك تحتفل برحيل الشيخ هلال .
- أستغفر الله . . هذه شماتة وأنا لا أشمت بأحد . . ربنا يسهل له .
- وما الداعى لأن تحتفل بالحمار ؟
- إنه أعز المخلوقات على قلبى . . صديقى الوفى . . الوحيد الذى يتحملنى .

مضى من جديد يدعو الناس ويتزايد العدد ، ومع ذلك ظل يبعث الخفراء والأحباب لتجديد الدعوة .

بدأ الحفل بكلمة أعلن فيها العمدة ترحيبه بالناس ، وبأنه قرر أن يقيم هذا الحفل فى نفس اليوم كل عام ، وأنه يحس أن الناس مرهقة وتعانى ، لذلك قرر أن يكون اليوم هو يوم الفرح . تعالت الصيحات والضحكات ثم أنشأ الشاعر يتغنى بسيرة « أبو زيد الهلالى » .

جلس أهل القرية فى دوائر وأشعلوا النار ، البعض يقزقز اللب والسودانى ، والبعض يمص أعواد القصب ويشرب الجميع الشاى والقرفة .

صعدت الراقصة .. ابتهج الجميع وتابعوها باهتمام وتناثرت التعليقات . تلاها الشاعر وتغنى ببعض فقرات من السيرة ثم صعد لطيف بن على الشناوى ومعه جابر بن حسنين كمونة وأمسكا بالميكروفون واعترفا معا بأن ما قالاه للشيخ هلال عن سهر العمدة فى كباريهات مصر صحيح وقد رآه البعض عدة مرات وتكتم الخبر ، وأنهما أساءا للشيخ بإنكارهما هذه الحقيقة وأن البلد جميعها وراءهما ، واعتمادا على كلام العمدة تنكرت للشيخ ولم يحاول واحد أن يقف معه أو يطيب خاطره ، وأنهما يعترفان بأن البلد خسرت أفضل رجل ظهر فيها منذ سنوات طويلة وأننا لم نستفد بوجوده ، ولم نحافظ عليه ولم نحمه من جبروت العمدة ، الذى يفعل كل ما يشاء دون أن يفكر أحد فى الاعتراض ، ونحن لا نقول كلاما جديدا . . فكلكم تعرفون عنه كل شىء . . لقد اشتركنا فى الإساءة إلى الشيخ الفاضل المحترم وساعدنا العمدة على طعنه وإهانته وأنتم مقصرون فى حقه . . وتخليتم عنه فى الوقت الذى كان فى أشد

الحاجة إلى دعمكم ، وهو الذى لم يُضع ليلة واحدة بل دقيقة واحدة دون أن يفكر فيكم ويعمل من أجلكم .. نحن قرية لا تستحق .. نحن فى الحقيقة قرية ظالمة لا تعرف فضل رجالها القلائل . هيا استمتعوا بوقتكم واسمعوا الشاعر يحكى لكم عن أبى زيد .. أبو زيد الذى اختفى من زمن ولا تحاولون أن تقفوا مرة واحدة مع « أبو زيد » جديد يولد منكم ومعكم .. أنتم ونحن معكم ضيعنا أبو زيد .. «قول يا شاعر .. قول واشجينا» .

كان العمدة قد أرسل خفيرين إلى الميكروفون للقبض على الشابين أو إزاحتهما ، ولكن الخفيرين قبض عليهما شابان آخران ، وانتظر العمدة طويلا دون أن يجد الأمر قد تغير ، فوقف وزعق وأخذ يصرخ .. لكن الناس كانوا ينهضون .. جميعا ينهضون ويغادرون المكان .. جميعهم كانوا يغادرون ، وخلت الساحة للعمدة .. ظل يصرخ ويهذى .. يلوح بعصاه .. ويهدد ثم يفخر بنفسه .

- أنا العمدة .. أنا هنا الآمر الناهى .. أنا

العمدة . . أنتم لاشىء بدونى . . سأمسح كل من يقف فى طريقى . . أنا العمدة يا عالم يا بقر . . أنا العمدة . . وأنتم لا تستحقون ما أفعله من أجلكم . . غوروا . . هيا . . غوروا فى ستين داهية . . أنا بكم عمدة وبدونكم عمدة .

بدت الساحة واسعة جدا و فارغة جدا . . والعمدة فيها وحيد كخيال المآتة يلوح بعصاه . . بينما بعض ألسنة النار التى لا تزال على الأرض فى لحظاتها الأخيرة ، حريصة برغم النهاية على أن تطلق دخانها هنا وهناك فيتراقص على الأضواء القادمة من كل ركن ، بينما الظلام من ورائها يهيمن على كل شىء .

صدر للمؤلف

أولا : المجموعات القصصية

١ - عقدة النساء	١٩٧٨	على نفقته
٢ - كلام الليل	١٩٧٩	على نفقته
٣ - العجز	١٩٨٣	دار الهلال
٤ - عسل الشمس	١٩٩٠	هيئة الكتاب
٥ - شدو البلابل والكبرياء	١٩٩٥	مختارات فصول
٦ - الغندورة	١٩٩٦	هيئة قصور الثقافة
٧ - زهرة البستان	١٩٩٩	هيئة قصور الثقافة
٨ - قناديل	٢٠٠٢	كتاب الجمهورية

ثانيا : الروايات

١ - أشجان	١٩٨٠	العربية للنشر
٢ - الناب الأزرق	١٩٨١	المطبعة الفنية
	٢٠٠٣	ط ٢ نادى القصة
٣ - السقف	١٩٨٤	هيئة الكتاب
	٢٠٠٣	ط ٢ نادى القصة
٤ - عشق الأخرس	١٩٨٦	أخبار اليوم
	٢٠٠١	ط ٢ مكتبة الأسرة
٥ - شفيقة وسرها الباتع	١٩٨٦	دار الغد العربى
٦ - موسم العنف الجميل	١٩٨٧	هيئة الكتاب
	٢٠٠١	ط ٢ مركز الحضارة العربية

٧ - عصر واوا	١٩٩٣	دار الهلال
٨ - بذور الغواية	١٩٩٤	هيئة الكتاب
٩ - روح محبات	١٩٩٧	المركز المصرى العربى
	٢٠٠٢	ط ٢ مكتبة الأسرة
١٠ - حكمة العائلة المجنونة	٢٠٠٠	دار الهلال
١١- الحمامة البرية	٢٠٠٣	مركز الحضارة العربية

ثالثا : الدراسات

١ - محمد مندور شيخ النقاد	١٩٨٦	دار الغد العربى
٢ - كيف تختار زوجتك ؟	١٩٨٧	دار الغد العربى
٣ - نجيب محفوظ كاتب العربية الأول	١٩٨٨	قصور الثقافة
٤ - إحسان عبد القدوس عاشق الحرية	١٩٩٠	قصور الثقافة
٥ - أدب الرحلة فى التراث العربى	١٩٩٥	قصور الثقافة
	٢٠٠٣	الدار المصرية اللبنانية
٦ - رؤية لرعاية المواهب	١٩٩٨	قصور الثقافة
٧ - صناعة التقدم فى مصر	٢٠٠١	مكتبة الأسرة
٨ - فن كتابة القصة	٢٠٠٣	قصور الثقافة
٩- دعاة الحرية	٢٠٠٦	أخبار اليوم

* قصص وروايات للأطفال
* الجزء الأول من الأعمال الكاملة (مجموعات القصص) عن هيئة الكتاب

١٢- لعبة الصراع	٢٠٠٢	هيئة قصور الثقافة
١٣- قبلة الحياة	٢٠٠٤	سلسلة الجوائز هيئة الكتاب
١٤- [illegible]	٢٠٠٥	دار الهلال
١٥- [illegible]	٢٠٠٦	الدار المصرية اللبنانية

تحت الطبع

* أبقى الباب مفتوحًا	رواية
* أشياء تصلح للعب	مجموعة قصص
* شجرة التفاح	قصص مترجمة
* الرواية الأفريقية	دراسة
* أنس الجميل	قصص قصيرة
* طالع الوطن	مقالات
* دور العرب فى خدمة العلوم الطبية	دراسة

الفهرس

صدر مؤخرا عن (أصوات أدبية)

٢٦٨ - مكاشفات شخصية .... شعر : بهاء جاهين
٢٦٩ - أقانيم .... قصص : اسماعيل البنهاوى
٢٧٠ - مرايا الذات الأخرى .... رحلة : صبرى حافظ
٢٧١ - ديوان غزالى .... كابتن غزالى
٢٧٢ - الصنم .... رواية : أشرف الخمايسى
٢٧٣ - منازل القمر .... قصص : سُمية رمضان
٢٧٤ - مواقيت البهجة .... قصص : عزت القمحاوى
٢٧٥ - عضم خفيف .... شعر : سعدنى السلامونى
٢٧٦ - حافة الود .... رواية : نبيل نعوم
٢٧٧ - صانع الصدمات .... قصص : أسامة خليل
٢٧٨ - السبعة .... شعر : عادل عزت
٢٧٩ - عشرين سنة على سلم المترو .... شعر : حمدى عبد العزيز
٢٨٠ - ضرورة الكلب فى المسرحية .... شعر : جرجس شكرى
٢٨١ - نجع السلعوة .... رواية : أحمد أبو خنيجر
٢٨٢ - طائر الفخار .... شعر : محمود نسيم
٢٨٣ - كائنات هشة لليل .... رواية : صلاح والى
٢٨٤ - قبض الريح .... قصص : شحاته عزيز جرجس
٢٨٥ - أغادر جسدى .... شعر : أحمد السواركه

٣١٢ - أحلام محرمة .... محمود حامد
٣١٣ - ذلك البيت الذى تنبعث منه الموسيقى ...... رنا عباس
٣١٤ - إنه الرابع من آل مستجاب .... محمد مستجاب
٣١٥ - العصافير تنفض أغلالها .... حسن فتح الباب
٣١٦ - عشاء برفقة عائشة .... محمد المنسى قنديل
٣١٧ - أقاليم اللهب ومرايا القلب الأخضر .... محمد الشهاوى
٣١٨ - جليس لمحتضر .... فريد أبو سعدة
٣١٩ - ١٩٩٩ .... شعبان يوسف
٣٢٠ - رسام الأرانب .... أحمد الشيخ
٣٢١ - طريق الحرير .... يسرى خميس
٣٢٢ - كنز الدخان .... فخرى لبيب
٣٢٣ - نعم .. أنا لص .... مختار العطار
٣٢٤ - الوقوف على الأعتاب .... يحيى شرباش
٣٢٥ - كأعمدة الصوارى .... سمير درويش
٣٢٦ - شباك مظلم فى بناية جانبية .... فؤاد مرسى
٣٢٧ - مرايا عطش .... عماره إبراهيم
٣٢٨ - سيف الجلالة .... أحمد الصعيدى
٣٢٩ - موت قارع الأجراس .... محمد جبريل
٣٣٠ - رجلى أثقل من سنة ٦٧ .... مسعود شومان
٣٣١ - كائنات ليل سرمدى .... خالد السروجى
٣٣٢ - صمت الكهنة .... صبحى موسى
٣٣٣ - معصية حرة .... مشهور فواز